وسئل رضي الله عنه
في السنة النبوية الشريفة

منهج الإيمان والرحمة فى رحلة الحياة

أخرج الإمام أحمد والشيخان عن أنس بن مالك بن صعصعة ، أن النبى ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به ، وكان مما قال فى هذا الحديث الصحيح : إن جبريل عليه السلام شقّ عن صدره واستخرج قلبه الشريف ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً وحكمة ، فغسل قلبى ، ثم حشى ثم أعيد .

وأخرج الشيخان من طريق يونس عن الزهرى عن أنس قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : فرج سقف بيتى وأنا فى مكة ، فنزل جبرائيل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه فى صدرى وأطبقه .

ثم بدأت الرحلة .

وكان أول مشهد شهده رسول الله ﷺ هو مشهد قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبى ﷺ : يا جبرائيل ما هذا : قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه .

وأول مشهد إذن بعد امتلاء القلب حكمة وإيماناً هو مشهد الجهاد ، وما من شك فى أن القلب إذا امتلأ إيماناً وحكمة فإن الجهاد يصبح فى أوائل ما يحافظ عليه من شعارات جهاد النفس لتتزكى ، وتزكية النفس لا حد لها ، والصفاء لا نهاية تحده ، وكلما سما الإنسان فى الصفاء درجة قرب من الله أكثر ، والقرب من الله لا نهاية له ، وهذا القرب هو غاية المؤمنين ، ومن وقف منه عند حد معتقداً أن هذا هو نهاية المطاف فإن هذا يكون دليلا على أن همته بهمة السابقين السباقين .

وجهاد الأسرة حتى تستقيم والله سبحانه وتعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة . .) ووقاية الأهل من النار هو جهادهم حتى يستقيموا ويمتنعوا عن الوقوع فى المعصية فذلك هو وقايتهم .

وجهاد المجتمع ليكون مجتمعاً مؤمناً وهذا الجهاد عنصر هام من عناصر خيرية الأمة الإسلامية والله سبحانه وتعالى يقول :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله) .

ويقول سبحانه :

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . .) ورسول الله ﷺ يقول فيما رواه الترمذى وأبو داود :

والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم .

ومن أسمى أنواع الجهاد هو جهاد العدو بالسلاح واللسان والمال ، والله سبحانه وتعالى يقول : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

ويقول : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . . . العظيم) . هذا هو الجهاد الذى رأى رسول الله ﷺ مشهده أول ما رأى من مشاهد بعد أن مُلئ قلبه الشريف حكمة وإيماناً .

ولقد وصل الأمر فى عقاب التاركين للجهاد أن ينذرهم رسول الله ﷺ إنذاراً شديداً .

فعن أبى بكر رضى الله عنه – فيما رواه الطبرانى بإسناد حسن – قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب » .

فى محبة الرسول

يقول الله تعالى فى حديث قدسى :

(من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه) .

وفى هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه فى قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية لأوليائه .

وأولياؤه هم :

(الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

ومن عاداهم فإنما يعادى المؤمن التقى .

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى :

« آذنته بالحرب » .

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه : وأول خطوة فى هذا الطريق أداء ما فرضته عليه . ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول : شرط القرب منه سبحانه ، وهو أداء الفرائض .

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب . بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله .

لقد ترك قوم العمل وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، كما يقول رسول الله ﷺ ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

لابد من أداء الفرائض وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل ، ومع أداء الفرائض فى جو القرب – الإكثار من النوافل ، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله تعالى .

ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى .

ويربط أسلافنا – رضوان الله عليهم – ربطاً محكماً بين محبة الله سبحانه واتباع رسول الله ﷺ متناسقين فى ذلك مع توجيه الله سبحانه .

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل .

ومقدمات محبة الله تعالى هى العمل ، ونتيجة محبة الله هى العمل ، يقول الإمام أبو سعيد الخراز : وبلغنا عن الحسن البصرى رضى الله عنهما أن أناساً قالوا على عهد رسول الله ﷺ : يارسول الله ، إنا نحب ربنا حبًّا شديداً فجعل الله تعالى لمحبته علماً وأنزل عزّ وجل :

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

فمن صدق المحبة اتباع الرسول ﷺ فى هديه وزهده وأخلاقه ، والتأسى به فى الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله عز وجل جعل محمداً ﷺ علماً ودليلا وحجة على أمته .

ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز وجل فى جميع الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك ويقول :

فعلامة الحب الموافقة للمحبوب ، والتجارى مع طرقاته فى كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه .

أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالى يقول : وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزين العقيلى : يارسول الله ، ما الإيمان ؟

قال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وفى حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

وفى رواية : ومن نفسه .

كيف وقد قال الله تعالى :

(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار .

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله يحيى بن معاذ . إلهى إنى مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك . صغيراً أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال : ستراً وتوبة وزهداً وشوقاً ، ورضاً وحبًّا ، تسقينى من حياضك ، وتمهلنى فى رياضك ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك . . ولمَّا طَرَّ شاربى . ولاح طائرى ، فكيف أنصرف اليوم عنك كثيراً ، وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلى ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك همهمة ، لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف .

وبعد : فإن ثمرة محبة الله تعالى هى ما قاله سبحانه عن أوليائه : (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) .

وهى أيضاً أن يجد حلاوة الإيمان . يقول رسول الله ﷺ : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان :

١ – أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

٢ – وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله .

٣ – وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار .

والآن نتحدث إن شاء الله عن المحبة عند الشبلى أما عن أسبابها فإنها فيما يرى نتيجة (الهمة) والهمة عند الصوفية هى التشمير والجد فى العبادة ويقول الشبلى : إن من قلت همته ضعفت محبته فمع الهمة إذن صعوداً وهبوطاً تكون المحبة صعودًا وهبوطاً .

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

وسئل مرة عن أعجب شىء فقال : من عرف الله ثم عصاه .

فى الاقتداء برسول الله ﷺ

ورسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة إنه الأسوة الحسنة فى أقواله وأفعاله وأحواله : يقول الله تعالى :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) ويقول الشيخ الصاوى فى شرحة على تفسير الجلالين « الاقتداء برسول الله ﷺ واجب فى الأقوال والأفعال والأحوال لأنه لا ينطق عن هوى ، ولا يفعل عن هوى بل جميع أفعاله وأقواله وأحواله عن ربه ، لذا قال العارف :

وحصل بالهدى فى كل أمر فليس تشاء إلا ما يشاء » ا . هـ .

والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة النجم : (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى) .

وإذا كان الاقتداء برسول الله ﷺ واجباً فإن له شروطاً لا يتأتى الاقتداء الصحيح إلا بتحقيقها ، وقد ذكرت الآية الكريمة هذه الشروط .

والشرط الأول منها : أن يرجو الإنسان الله سبحانه وتعالى : ورجاء الله تعالى قد حدده الله سبحانه فى القرآن الكريم بقوله :

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

فالعمل الصالح وعدم الشرك فى العبادة أمران لازمان لمن كان يرجو لقاء الله فى صدق .

ويقول الإمام ابن كثير فى ذلك :

وهذان ركنا العمل المتقبل : لابد أن يكون خالصاً لله ، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ .

وعن طاوس قال :

قال رجل : يا رسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى . فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية .

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

ورجاء اليوم الآخر هو الشرط الثانى والتأسى برسول الله ﷺ إنما يتمثل فى العمل لهذا اليوم حتى يلقى الله فيه وهو عنه راض .

ويصف الله سبحانه الذين لا يرجون لقاءه ، ولا يرجون اليوم الآخر فيقول : (إن الذين

لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) .

وبعد ، فإن الشرط الأخير فى الوصول إلى التأسى برسول الله ﷺ هو الذكر الكثير . ولقد سأل رجل رسول الله ﷺ قائلا :

إن شرائع الإسلام كثرت علىّ ، فأخبرنى بشىء أتشبث به ، فقال له ﷺ لا يزال فوك رطباً من ذكر الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : (واذكروا الله كثيراً لعلكم تتقون) .

كان أصحاب رسول الله ﷺ يقتدون به فى كل شىء . . . أخرج البخارى ومسلم ومالك والترمذى والنسائى وابن ماجه عن سعيد بن يسار قال : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما فى طريق مكة ، فلما خشيت الصبح نزلت فأوترت ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : أليس لك فى رسول الله أسوة حسنة ؟ قلت : بلى . قال : فإنه كان يوتر على البعير .

وأخرج البخارى ومسلم والنسائى وغيرهم عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سئل عن رجل معتمر طاف بالبيت أيقع على امرأته قبل أن يطوف بالصفا والمروة ؟ فقال : قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين ، وسعى بين الصفا والمروة ثم قرأ : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) .

أخرج أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عمر رضى الله عنه أكب على الركن فقال : إنى لأعلم أنك حجر ولو لم أر رسول الله ﷺ قبلك واستلمك ما استلمتك وما قبلتك . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة .

فى سيادة الرسول فى التشهد وغيره

كان رسول الله ﷺ متواضعاً لا يرى إلا جانب العبودية لله سبحانه وتعالى وينأى عن كل ما يمكنه أن يظهر فيه بعد ذلك .

فلما سأله الصحابة كيف نصلى عليك قال : قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد .

فلم يذكر اسمه ﷺ بأوصاف السيادة فى هذا المجال . ولكن الرسول ﷺ فى معرض الحديث عما أنعم الله به عليه يقول فيما رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة ، أنا سيد ولد آدم يوم القيامة

ولا فخر . . وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مشفَّع ولا فخر ، فنحن أمام موقفين : موقف الوقوف عند حد تعليم الرسول ﷺ للصحابة ، فلا تذكره ﷺ بوصف من أوصاف السيادة . وموقف الوقوف مع ما يستحقه ﷺ من أوصاف السيادة مما تحدث ﷺ عنها فى موطن آخر ، ويحمل تركه هذا الوصف فى جواب الصحابة على أنه ، تواضع منه ﷺ حيث ترك ذلك التبجيل والاحترام ليذكره بألفاظ السيادة من أراد وهو ما نراه ، والأمر مع ذلك متروك لرغبة المسلم ولكل وجهة وكلتا الوجهتين سليمة لا غبار عليها ، بقى أن نقول إن بعض الناس غالى فى ترك النبى ﷺ بألفاظ السيادة ، فحرم ذلك ، ولما لم يجد له مستنداً من الشرع اخترع من الأحاديث ما يوافق هواه ألا وهو حديث : (لا تسيدونى فى الصلاة) إنه ليس بحديث إنه كما يقول السخاوى وغيره من علماء الحديث . لا أصل له .

ومما له مغزاه فى هذا الموطن أن الرسول ﷺ قال : لبعض الصحابة وقد حضر سعد رضى الله عنه . قوموا لسيدكم ، ويقول سيدنا عمر رضى الله عنه فيما رواه البخارى : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا – يعنى بلالا ، وإذا كان بلال سيدنا وأبو بكر سيدنا فمن باب أولى الرسول ﷺ صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله .

فى صفة خاتم النبى ﷺ

وردت الأحاديث الصحيحة فى صفة خاتم النبى ﷺ وما عليه من النقوش ، روى الترمذى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ صنع خاتماً من ذهب فتختم به فى بيته ، ثم جلس على المنبر فقال : « إنى كنت اتخذت هذا الخاتم فى يمينى » ، ثم نبذه ونبذ الناس خواتيمهم .

وبذلك بين حرمة اتخاذ الخواتم من الذهب .

وكان ﷺ يلبس الخاتم فى يده اليمنى قال الترمذى : وهذا أصح شىء روى عن النبى ﷺ فى هذا الباب وكان لخاتمه من الفضة نقش به وكان هذا النقش كما تبينه رواية الترمذى عن أنس ثلاثة أسطر : محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر .

ولقد كان النبى ﷺ يراعى حرمة اسم الله على الخاتم فكان إذا دخل الخلاء لقضاء الحاجة نزع خاتمه .

أما عن سبب وجود اسم الله على هذا الخاتم فلأن الرسول ﷺ كان يختم به الخطابات التى يرسلها إلى رؤساء العالم وملوكه ، فكان شعاراً للدولة الإسلامية ، أو خاتماً تختم به الخطابات الرسمية ليعبر عن صفة مرسله ومكانته .

ومما لا يخفى أن هذا النقش كان خاصًّا به ﷺ ، لا يجوز لأحد تقليده فيه . . . لأنه لا رسول بعده ، ولا يصح لأحد أن ينتحل شخصيته .

وكان خاتم رسول الله ﷺ من فضة فصه منه .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ صنع خاتماً من ورق فنقش فيه (محمد رسول الله) ثم قال : « لا تنقشوا عليه » . . قال الترمذى : وما معنى قوله : « لا تنقشوا عليه » نهى أن ينقش أحد على خاتمه محمد رسول الله .

فى صيام الاثنين والخميس

كان ﷺ ، يصوم يوم الاثنين من كل أسبوع ، ولما سئل عن صيامه قال :

يوم ولدت فيه : وأرسل إلى فيه وهو يوم ترفع فيه الأعمال إلى الله عز وجل ، وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم .

وبهذا نرى أن رسول الله ﷺ : فضلا عن قيامه بواجب شكر الله عز وجل عّلى ما تفضل عليه به من نعمة إخراجه للوجود وإرساله إلى الناس ، فى هذا اليوم العظيم ، يأمر أصحابه بصيامه شكراً لله على تلك النعمة ، التى أسبغها الله عليهم وليس أدل على احتفالهم بمولد النبى ﷺ من صيامهم لذلك اليوم .

ولا شك أن صيام الرسول ﷺ لهذا اليوم العظيم يوم الاثنين وسن صيامه للمسلمين من بعده يعتبر إحياءً لذكر مولده ﷺ بعمل يثاب عليه فاعله .

وقد كانت الموالد كلها فيما مضى من نشأتها طاعة لله عز وجل القصد منها إعطاء الطعام وذكر الله عز وجل ، وتعريف المسلمين بفضائل نبيهم ﷺ ، وحثهم على متابعته .

أما ما يحدث فى الموالد اليوم ، من لهو صارف عن طاعة الله وطاعة رسوله ، ومقارفة للمعاصى إلا قليلا من المحافظين على حرمات دينهم ، فلم يكن له وجود فيما مضى ، والموالد بحاجة إلى رعاية وتقويم وفرض عقوبات على كل مستهتر بدينه لا يراعى لله ولا لرسوله حرمة .

فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف

أما عن الاحتفال بالمولد النبوى فهو سُنّة حسنة من السُّنن التى أشار إليها الرسول ﷺ بقوله : « مَن سنّ سُنّة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » .

وذلك لأن له أصولا ترشد إليه وأدلة صحيحة تسوق إليه ، استنبط العلماء منها وجه مشروعيته . ومن هذه الأدلة ما يأتى :

١ – سئل ﷺ عن صوم الاثنين فقال :

« فيه ولدت ، وفيه أُنزل علىَّ » . رواه مسلم .

فجعل ولادته فى يوم الاثنين سبباً فى صومه .

٢ – سئل ابن حجر عن هذا المولد فكان مما قال وقد ظهر لى تخريجها على أصل ثابت وهو ما يثبت فى الصحيحين من أن النبى ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء فسألهم فقالوا : هو يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى ، فنحن نصومه شكراً لله تعالى . . فيستفاد منه فعل الشكر لله على ما منّ به فى يومٍ من إسداء نعمة أو دفع نقمة ، ويعاد ذلك فى نظير ذلك اليوم من كل سنة .

والشكر لله يحصل على أنواع العبادة كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة – وأى نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبى نبى الرحمة فى ذلك اليوم .

أما التاريخ الذى ابتدأ به هذا الاحتفال فقد قال السيوطى :

إن أول من أحدث فعل ذلك صاحب إربل الملك المظفر أبو سعيد كوكبرى بن زيد الدين على ابن بكتكين ، أحد الملوك الأمجاد والكبراء والأجداد ، وكان له آثار حسنة ، وهو الذى عمر الجامع المظفرى بسفح قيسون وكان ذلك فى القرن السابع .

ولا يعنى ترك السلف لهذا العمل الصالح مخالفته للشرع لأن السلف الصالح كان عندهم من اليقظة الدينية وحب النبى الكريم مايغنيهم عن التذكير بيوم مولده للاحتفال . ومما ينبغى التنبيه إليه أن الاحتفال بمولد الرسول ﷺ ينبغى أن يكون باستعراض سننه ، والتذكير بدعوته ، والاسترشاد بهديه ، وأن يكون بالإكثار من العبادة والذكر والصدقة فى سبيل الله ، هذا ومما ينافى الاحتفال بهذه الذكرى اختلاط النساء بالرجال ، وانتشار المفاسد والموبقات ، والإقبال على المحرمات وما إلى ذلك مما هو معروف .

لماذا لم يكن الصحابة والتابعون يحتفلون بمولد نبينا محمد ﷺ ونحن نحتفل بمولده ﷺ ؟

كان ﷺ يصوم يوم الاثنين من كل أسبوع . . ولما سئل عن صيامه قال : يوم وُلدت فيه . وأُرسل إليَّ فيه . . وهو يوم ترفع فيه الأعمال إلى الله عز وجل .

وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم .

وبهذا نرى أن رسول الله ﷺ فضلا عن قيامه بواجب الشكر لله عز وجل على ما تفضل عليه به من نعمة إخراجه للوجود ، وإرساله إلى الناس فى هذا اليوم العظيم يسن لأصحابه صيامه شكراً لله على تلك النعمة التى أسبغها الله عليهم ، وليس أدل على احتفالهم بمولد النبى ﷺ من صيامهم لذلك اليوم .

ولا شك أن صيام الرسول ﷺ لهذا اليوم العظيم يوم الاثنين ومن صيامه للمسلمين من بعده يعتبر إحياء لذكر مولده ﷺ بعمل يثاب عليه فاعله .

وقد كانت الموالد كلها فيما مضى من نشأتها طاعة لله عز وجل القصد منها إطعام الطعام وذكر الله عز وجل .

وتعريف المسلمين بفضائل نبيهم ﷺ وحثهم على متابعته ، أما ما يحدث فى الموالد اليوم من لهو صرف عن طاعة الله وطاعة رسوله ومقارفة للمعاصى إلا قليلا من المحافظين على حرمات دينهم ، فلم يكن له وجود فيما مضى .

والمولد بحاجة إلى رعاية وتقويم وفرض عقوبات على كل مستهتر بدينه لا يرعى لله ولا لرسوله حرمة . .

فى كيفية الصلاة على النبى

كان الرسول ﷺ متواضعاً لا يرى إلا جانب العبودية لله سبحانه وتعالى وينأى عن كل ما يمكن أن يظهر فيه بعد ذلك .

فلما سأله الصحابة كيف نصلى عليك قال : قولوا : اللهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » .

فلم يذكر اسمه ﷺ بأوصاف السيادة فى هذا المجال ولكن الرسول ﷺ فى معرض الحديث عما أنعم الله به عليه يقول : فيما رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مُشفَّع .

وفى رواية أخرى : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . . وسيد لواء الحمد ولا فخر وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » .

فنحن أمام موقفين موقف الوقوف عند حد تعليم الرسول ﷺ للصحابة ، فلا نذكره ﷺ بوصف من أوصاف السيادة . وموقف الوقوف مع ما يستحسنه ﷺ من أوصاف السيادة مما تحدث ﷺ عنها فى مواطن أخر . ويحمل تركه هذا الوصف فى جواب الصحابة على أنه تواضع منه ﷺ حيث ترك ذلك التبجيل والاحترام بذكره بألفاظ السيادة لمن أراد وهو ما نراه .

والأمر مع ذلك متروك لرغبة المسلم ولكل وجهة وكلتا الوجهتين سليمة لا غبار عليها بقى أن نقول : إن بعض الناس غالى فى ترك ذكره ﷺ بألفاظ السيادة فحرم ذلك ، ولما لم يجد له مستنداً من الشرع اخترع من الأحاديث ما يوافق ميوله ألا هو حديث : لا تسيدونى فى الصلاة .

إنه ليس حديثاً – إنه كما يقول السخاوى وغيره من علماء الحديث . . لا أصل له .

وعلى ذلك فلا مانع يمنع من ذكر الرسول ﷺ بألفاظ السيادة فى التشهد وغيره امتثالا لقوله تعالى : (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) .

ومما له مغزاه فى هذا الموطن أن الرسول ﷺ قال لبعض الصحابة وقد حضر سعد رضى الله عنه .

قوموا لسيدكم .

ويقول سيدنا عمر رضى الله عنه فيما رواه البخارى :

أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعنى بلالا .

وإذا كان بلال سيدنا وأبو بكر سيدنا فمن باب أولى الرسول ﷺ ، عليك يا سيدى يا رسول الله .

فى دلائل الخيرات

إن دلائل الخيرات إنما هى صلوات على رسول الله ﷺ . ولا تمنع طريقة من الطرق الصلوات على رسول الله وذلك لأن الله أمرنا بالصلاة عليه فقال سبحانه : (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) ، ورجال الطريقة التيجانية

ومشايخها يقرءون دلائل الخيرات ، وكان الشيخ عمر غمبو خليفة التيجانية بالسودان يقرأ دلائل الخيرات هو وتلاميذه وتابع أبناؤه قراءتها من بعده ، بل إنه توجد نسخة من دلائل الخيرات بخط العارف بالله الشيخ أحمد التيجانى الكبير ، شيخ الطريقة ، ويقول فضيلة الشيخ الحافظ التيجانى خليفة الطريقة بمصر : إن الأوراد اللازمة فى الطريقة يصح أداؤها بأية صيغة للصلاة على النبى ، وأنه يجوز لقارئ ورد التيجانى أن يقرأ دلائل الخيرات بل إن فى الطريقة التيجانية أحزاباً من الطريقة الشاذلية وضرب النووى ولا حرج على السالك أو المريد مادام يلتزم طريقة واحدة لأن من انقطع لشىء أحسنه .

فى الرسول ﷺ ، وسنته الشريفة

يقول الله تعالى لرسوله الكريم ، ﷺ : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) ، وما كانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل من قبله ، فموسى عليه السلام أرسل لبنى إسرائيل خاصة ، لقد اقتصرت دعوته على بنى إسرائيل ، لدرجة أنه حينما ذهب هو وهارون ، عليهما السلام ، إلى فرعون ، قالا له :

(إنّا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل) .

فموسى ذهب إلى فرعون ليرسل معه بنى إسرائيل ، ولم يكافح سيدنا موسى الشعوب أو الأمم فى سبيل دعوته ، وعيسى عليه السلام : إنما أُرسل إلى . . « خراف بنى إسرائيل الضالة » على حد تعبيرهم القديم ، ولم يحاول سيدنا عيسى أن يبشر بدعوته خارج فلسطين ، ولم يحاول أن يجاهد من أجلها .

أما رسول الله ﷺ : فإنه أُرسل إلى الناس جميعاً : إنه أُرسل إلى الناس جميعاً من حيث المكان ، وأرسل إليهم جميعاً من حيث الزمان ، فهو الرسول الدائم زماناً ومكانا . (قل يأيها الناس إنى رسول الله عليكم جميعاً) .

وقد تكفل الله تعالى بحفظ الكتاب الذى أنزله على رسوله ﷺ ، ضماناً لهذا العموم فى الزمان وفى المكان ، وتحقيقاً له (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ومن أجل هذا الوعد يحفظ الوحى كاملا غير منقوص ، صحيحاً غير مزيف ، إنّ الحكمة الإلهية فى الإنسانية لا تحتاج إلى رسول بعد الرسول ، ولا إلى نبى بعد النبى ، إنه صلوات الله وسلامه عليه ، خاتم الرسل ، وخاتم الأنبياء .

ولقد امتزج رسول الله ﷺ برسالته الخالدة ، فكان هو هى شرحاً وتفصيلا .

وكانت هى هو بياناً لمعدنه وجوهره ، وخلافة له ونيابة عنه .

تقول السيدة عائشة ، رضى الله عنها : لقد كان خُلقه القرآن ، وهذه الكلمة من السيدة عائشة : رضوان الله عليها : تحتاج إلى تحديد وبيان : ذلك أن القرآن يحدد الخلق الكريم فى حده الأدنى ، ثم لا يقتصر على ذلك ، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق ، ويوجه إلى السنام منها . ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين .

فهل تريد السيدة عائشة « رضوان الله عليها » حينما تصفه ﷺ بأن خلقه القرآن ، هل تريد الخلق الكريم فى حده الأدنى ؟ أو تريده فى حده الأوسط ؟ أو تريده فى حده الأقصى ؟

إن القرآن يحدد الدرجة التى وصل إليها الرسول ﷺ من الخلق القرآنى : فيقول : سبحانه لرسوله ﷺ (وإنك لعلى خلق عظيم)

هذه الآية القرآنية وصل إليها الرسول ﷺ ، إنها ذروتها وسنامها .

أول المسلمين :

ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

إنه ﷺ بعث ليتمم المكارم الأخلاقية ، ليتممها بذاته ، بسلوكه ، وليتممها بقوله ، برسالته ، إنه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب ، وإنما بعث ليتمم مكارمها .

ومكارم الأخلاق : لم تكن – قبل الرسول صلوات الله وسلامه عليه – قد تمت ، إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد ، وكانت بذلك مكارم الأخلاق ناقصة ، كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق ، وهى إسلام الوجه لله إسلاماً تامًّا : إن الكائنات لم تكن قد وصلت – لا فى نبى مرسل ، ولا فى ملك مقرب – إلى الذروة من إسلام الوجه لله .

والذروة من إسلام الوجه لله ، أو أول المسلمين ، والتعبيران سواء – إنما هو الذروة من مكارم الأخلاق ، إن الكائن الربانى : إنه أول المسلمين ، أولهم بإطلاق أولهم بالنسبة للملائكة . وأولهم بالنسبة لبنى آدم ، أولهم قديماً وأولهم إلى الأبد . . إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد .

وكانت الإنسانية بذلك ناقصة ، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصة .

كان الكون ناقصاً مادة ومعنى ، كان نقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد وأن يتعطر جوه بأزكى الأرواح ، وكان لابد من وجود كائن بهذه المثابة يكمل الله به الدين ويتم به النعمة ، ويرضى رسالته ديناً عامًّا خالداً للإنسانية جمعاء : هو إسلام الوجه لله .

ويتزل القرآن محدداً إسلام الوجه لله وسائل ، ومحدداً إسلام الوجه لله غايات ، ومحدداً إسلام الوجه لله طرقاً وأساليب ، ومحدداً له بواعث وأهدافاً ، ومن هنا كان من ينبغى غير الإسلام ديناً لا يقبل منه ، يقول الله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) ، وكيف يقبل منه ما يتنافى مع إسلام الوجه لله .

إن إسلام الوجه لله هو الذروة من مكارم الأخلاق ، وهو جوهر التدين ، إنه الدين القيم ، إنه الدين الخالد ، والنص الوحيد ، النص الإلهى الفريد فى العالم كله الذى يبين كيفية إسلام الوجه لله ، إنما هو القرآن . وإذا ما وصل الإنسان إلى إسلام الوجه لله كان بذلك فى ذروة الإنسانية ، وفى الذروة من مكارم الأخلاق .

ويتفاوت الناس فى إسلام وجوههم لله ، ولابد من أن يكون أحدهم أول المسلمين . فكان رسول الله ﷺ ، أولهم بإطلاق مطلق :

(قل إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصاً آخر غير الرسول ﷺ .

ومكارم الأخلاق لا يحدها – من حيث التبشير بها – مكان ، ولا يحدها زمان ، بل لا يحدها عالم من عوالم الله فى الأرض أو السماء . . من أجل ذلك كانت رسالته صلوات الله عليه وسلامه رحمة للعالمين .

يقول تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

من مكانة الرسول ﷺ

ورسول الله ﷺ – لأنه يمثل الأخلاق القرآنية فى ذروتها – جعل الله سبحانه وتعالى له مكانة خاصة بين المسلمين ، فهو صلوات الله وسلامه عليه – لأنه تمثل القرآن وحققه ، وأصبح قرآناً ، أصبح بذلك يمثل الحق بقوله ، ويمثل الحق فلا ينطق عن الهوى ولا يعمل بالهوى .

يقول تعالى لرسوله ﷺ : (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً) ، بل إن طريق الدعوة نفسه ، كان صلوات الله وسلامه عليه ، يسير فيه معصوماً ، وكل من يسير فى الدعوة على نسقه إنما يسير معصوماً بعصمة الرسول ﷺ التى منحها الله تعالى إياه ، قل : « هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » .

ودعوته إذن وطريق دعوته يسير فيهما على هدى ، وعلى نور من ربه ، ولذلك فإن (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ويعمم الله سبحانه ، الحكم تعميماً ، ويطلقه إطلاقاً فيقول سبحانه : (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . ويقول تعالى : (إن تطيعوه تهتدوا) .

واتباع الرسول ﷺ علامة على محبة الله تعالى لمن يتبعه وسبب فى حبه تعالى له .

قل : (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) . إن حب العبد لله لا يفيد ما لم يتخذ العبد الوسيلة الناجعة لذلك ، وهذه الوسيلة هى اتباع رسول الله ﷺ .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى رواه الإمام البخارى : من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب . وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه .

وهذه النوافل التى ذكرت فى الحديث الشريف ، والتى إذا أكثر الإنسان منها بعد أداء الفرائض ، أحبه الله : إنما هى سلوك رسول الله ﷺ ، إنها طريق رسمه ، صلوات الله عليه وسلامه بقوله : وبعمله ، إنها سننه صلوات الله وسلامه عليه التى سنّها ، لينال الإنسان بها محبة الله سبحانه .

من مكانة رسول الله ﷺ عند ربه أيضا

وأحب الله سبحانه رسوله ﷺ ، وكان هذا الرسول بعبوديته لله سبحانه حبيب الله ، وبلغ الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه ، بعبوديته التامة درجة أول المسلمين ، كما سبق أن ذكرنا .

ولما كان أول المسلمين ، وكان حبيب الله ، ونبيه ورسوله : ميزه الله سبحانه وتعالى على بقية البشر بكونه خيرهم وهذا التميز لا يخرجه صلوات الله عليه وسلامه عن البشرية ، فهو خير البشر ، ومنتهى القول فيه أنه بشر ، وأنه خير خلق الله كلهم ، ولأنه خير البشر يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) .

إن الإنسان الذى خصه الله بالوحى ، واجتباه لرسالته واصطفاه ليكون – باسمه سبحانه – بشيراً ونذيراً ، إن هذا الإنسان الذى فضله الله على العالمين : يجب أن نعرف له مكانته وننزله فى الشرف الذى أنزله الله فيه ، إن هذا السراج المنير إن هذا الرءوف الرحيم ، ينبغى ألا يدعى كما

يدعى زيد وعمرو ، بمعنى لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ، ولا بكنيته فتقولوا : يا أبا القاسم ، بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم والتكريم والتوقير بأن تقولوا يا رسول الله ، يا نبيّ الله ، يا إمام المرسلين ، يا رسول رب العالمين يا خاتم النبيين وغير ذلك .

ونستفيد من هذه الآية – كما يقول الشيخ الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين إنه لا يجوز نداء النبى بغير ما يفيد التعظيم ، لا فى حياته ، ولا بعد وفاته ، فبهذا يعلم أن من استخف بجنابه ﷺ ، فهو كافر ملعون فى الدنيا والآخرة .

ويقول الله سبحانه فى أوائل سورة الحجرات : (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) ، أى لا تتقدموا بأمر من الأمور قولا كان أو فعلا ، إلا إذا أذن الله ورسوله ، وكل أمر – قولا كان أو فعلاً – أتاه الإنسان بدون إذن الله ورسوله فإنه لا يقع على السنن المستقيمة ، يقول الضحّاك عن ذلك : هو عامّ فى القتال وشرائع الدين ، أى لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم .

(يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ، واحذروا إن فعلتم ذلك : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

أما هؤلاء الذين أساءوا الأدب دون أن يقصدوا فأخذوا ينادونك من وراء الحجرات مناداة الأعراب الأجلاف ، فإن عقولهم – فى الأغلب الأعم – ناقصة (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) .

على أن مجرد الرغبة فى الحديث إلى رسول الله ﷺ يحتاج تنفيذها إلى تقديم صدقة . يقول الله تعالى فى سورة المجادلة : (يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم ، وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) .

وتدل الآية الكريمة على أن ترك تقديم الصدقة إثم ، لأن من لم يجد الصدقة فإن موقف الله سبحانه منه – لعدم قدرته – المغفرة والرحمة ، ولا تكون المغفرة والرحمة إلا على إثم ما آتاه الإنسان .

وعدم توفر الاستطاعة سبب مغفرة الله سبحانه .

وإذا حملكم خوف الفقر على ألا تفعلوا ، وإذ قادكم الضعف الإنسانى إلى ألا تنفذوا ذلك ، ثم ندمتم واستغفرتم ، فتداركوه حتى يتوب الله عليكم ، وأثبتوا حسن نيتكم وصفاء

سريرتكم ، بأن تقيموا الصلاة على الوجه الأكمل . وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم ، وتطيعوا الله ورسوله فى الصغير والكبير ، وما من ريب فى أن الله سبحانه خبير بكل ما تعملون .

يقول الله تعالى : (أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الله ورسوله ، والله خبير بما تعملون) .

وبعد فيقول رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

ويقول الله تعالى :

(يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً) . هذا جانب من مكانة الرسول ﷺ التى أحبها الله له ، والتى نبه عليها سبحانه فى كتابه العزيز .

فى طاعة رسول الله من طاعة الله

وجانب آخر أحبه الله تعالى لرسوله نريد أن نبينه وهو أن الله سبحانه وتعالى قد فرض طاعة رسوله ﷺ ، مقرونة بطاعته ، بل لقد ذكرها الله سبحانه وتعالى وحدها باعتبارها فرضاً .

ويقول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبيناً) .

ويقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسوله إذا دعاكم لما يحييكم) . ويقول سبحانه : (قل أطيعوا الله والرّسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) .

وفى هذه الآية الكريمة : إشارة إلى أن الإعراض عن طاعة الله أو عن الرسول كفر ، وما من شك فى أنه كفر ، ذلك أن الإيمان من أركانه الإيمان برسول الله ﷺ ، وبأن كل ما أتى به صدق ، فالتولى عنه استخفافاً أو جحوداً وإنكاراً أو عناداً ومماراة ذلك كله كفر ، يخرج به المعرض عن دائرة الإسلام .

يقول الله تعالى فى طاعة الرسول صلوات الله وسلامه عليه حينما يفرده بالحديث :

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَرَ بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

ويقول تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

ويجعل سبحانه وتعالى طاعة الرسول ﷺ من طاعته فيقول سبحانه : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ويجعل بيعته صلوات الله وسلامه عليه بيعة لله ، فيقول سبحانه : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يدُ الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومَن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) .

وطاعة رسول الله ﷺ إنما هى فيما افترضه الله سبحانه أو سنه ، وفيما افترضه رسوله صلوات الله وسلامه عليه أو سنه .

وقد تابع الرسول ، ﷺ ، القرآن الكريم فى بيانه لمنزلة السنة ، ووجوب اتباعه ﷺ فيما سنه ، فلقد حث رسول الله ﷺ على تبليغ السنة ونشرها فقال فيما رواه أبو داود والترمذى عن زيد بن ثابت : « نضر الله وجه امرئ سمع مقالتى فحفظها ووعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوْعى من سامع » .

وروى فى معناه من طريق آخر : « رحم الله امرأ سمع مقالتى فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع » .

فكان رسول الله ﷺ يأمر الصحابة أن يبلغ الشاهد منهم الغائب فيقول فيما رواه أبو بكر : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب »

ولقد روى الحاكم والبيهقى أن رسول الله ﷺ قال : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسُنَّتى .

ويقول رسول الله ﷺ فى خطبة الوداع : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروا ، إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً : كتاب الله ، وسنتى » .

ويبين رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى عن أبى هريرة أن المسلمين سيدخلون الجنة إلا من لا يرغب منهم فى ذلك .

يقول ﷺ : كل أمتى يدخل الجنة إلا من أبى . قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى .

فى مكانة السنّة من القرآن

وسنة رسول الله ﷺ : لها مكانتها بالنسبة إلى القرآن ولها مكانتها بالنسبة إلى التشريع ، إنها المصدر الثانى بعد القرآن – للإسلام – إنها المصدر الثانى للإسلام باعتباره عقيدة ، والمصدر الثانى للإسلام باعتباره تشريعاً ، والمصدر الثانى للإسلام باعتباره أخلاقاً .

أما منزلتها بالنسبة إلى القرآن فإنها حسبما يقول الإمام الشافعى : « وسنن رسول الله ﷺ مع كتاب الله وجهان :

أحدهما : نصٌّ كتابٍ ، فاتبعه رسول الله كما أنزل الله .

والآخر : جملة بين رسول الله فيها عن الله معنى ما أراده بالجملة ، وأوضح كيف فرضها عامًّا ، أوخاصًّا وكيف أراد أن يأتى به العباد وكلاهما اتبع فيه كتاب الله .

وفى كلمة أخرى يبين الإمام الشافعى الوجهين فيقول : « أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب . والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب ، فبين رسول الله معنى ما أراد » . وهذان الوجهان لم يختلف فيهما أحد من الفقهاء ولا من المحدثين ، يقول الإمام الشافعى : « هذان الوجهان اللذان لم يُختلف فيهما » .

والوجه الأول : بين بنفسه أنه من الواضح أن رسول الله ﷺ كان يبين القرآن عقيدة وشريعة وأخلاقاً على وجوه شتى وعلى أنحاء مختلفة ، وعلى أساليب تختلف فى الإيجاز والإسهاب بحسب حالة المخاطب . يقول الله تعالى : (وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم) .

والرسول ﷺ كان يبين للناس ما نزل إليهم ، بسلوكه وبقوله وبإقراره يقول صلوات الله عليه وسلامه : « ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ، ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه » .

ولكن بيان رسول الله ﷺ ، كان يشتمل أيضاً على بيان ما أجمل فى كتاب الله وهذا الوجه كثير فى السنة .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : قال تبارك وتعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

وقال : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

وقال : وأتموا الحج ، والعمرة لله) .

ثم بيَّن على لسان رسوله عدد ما فرض من الصلوات ، ومواقيتها ، وسننها ، وعدد ركعاتها ، والزكاة ومواقيتها ، وكيفية عمل الحج والعمرة ، وحيث يزول هذا ويثبت وتختلف سننه وتتفق ، ولهذا أشباه كثيرة فى القرآن والسنة . ا . هـ .

وقد كان رسول الله ﷺ ، يبين كيفية الصلاة بقوله وعمله ، كأن يبين أوقاتها ، وأركانها وعدد ركعاتها ، وافتتاحها ، وترتيب حركاتها بعد الافتتاح . ويقول ﷺ : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى » .

ويبين رسول الله ﷺ ، مناسك الحج : أركانه ، وواجباته ، وسننه ويقول : خذوا عنى مناسككم .

وفرض الله سبحانه وتعالى الزكاة ، ولم يبين مقادير لها ، ولم يذكر بالتفصيل الزروع والثمار والأموال التى تجب فيها الزكاة ؛ فبين رسول الله ﷺ ذلك كله وطبقه .

ولقد بينت السنّة أن القاتل لا يرث ، وأن الوصية لا تكون فى أكثر من الثلث ، وأن الدَّيْن يقدم على الوصية هذا وكثير غيره مما بينته السنة .

عن عمران بن حصين : رضى الله عنه ، أنه قال لرجل يريد أن يقتصر على القرآن دون السنة : إنك امرؤ أحمق ، أتجد فى كتاب الله الظهر أربعاً لا يجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عدد عليه الصلاة والسلام الزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد ذلك فى كتاب الله مفسرا ؟ إن كتاب الله أبهم هذا ، قال : والسنة تفسر ذلك .

ولقد قيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير : لا تحدثونا إلا بالقرآن ، فقال : والله ما نبغى بالقرآن بدلا ، ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن .

ويقول الإمام الشافعى رضى الله عنه ، ومن قَبِل عن رسول الله ، فعن الله قبل : لما افترض الله من طاعته .

فى مكانة السنة من التشريع

ورسول الله ﷺ : يشرِّع عن الله تعالى : فيما لا نص فيه من كتاب الله .

إن رسول الله ﷺ ، بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه . إلى اليمن فقال له :

« كيف تقضى إذا عرض لك قضاء »

قال : أقضى بكتاب الله .

قال : فإن لم يكن فى كتاب الله » .

قال : فبسنة رسول الله .

قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله .

قال : أجتهد برأيى ولا آلو .

فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

وسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى رسالته فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه التى بدأها بقوله « سلام عليك » أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة .

يقول سيدنا عمر فى هذه الرسالة ، الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة .

فجعل سيدنا عمر السنة مصدراً من مصادر التشريع .

ولقد سئل سيدنا أبو بكر رضى الله عنه عن ميراث الجدة فقال : مالك فى كتاب الله من شىء ولكن اسأل الناس ، فسألهم ، فقام المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة فشهدا : أن النبى ﷺ أعطاها السدس .

ولم يكن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى رضى الله عنه .(١٤٧)

ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان ، أمير رسول الله ﷺ على بعض البوادى ، يخبره أن رسول الله ﷺ ورّث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها .

ولم يعلم حكم المجوس فى الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف : أن رسول الله ﷺ قال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

ولما قدم « سرغ » وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه ثم الأنصار ، ثم مسلمة الفتح فأشار كل عليه بما رأى ، ولم يخبره أحد بسنة ، حتى قدم عبد الرحمن بن عوف ، فأخبره بسنة رسول الله ﷺ فى الطاعون وأنه قال : إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه .

وهذا عثمان رضى الله عنه لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها زوجها تعتد فى بيت زوجها حتى

---

(١٤٧) فبين الاستئذان ثلاث ، فإذا لم يأذن له انصرف .

حدثته الفريعة بنت مالك أخت أبى سعيد الخدرى بقضيتها لما توفى زوجها ، وأن النبى ﷺ قال لها :

« امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله ، فأخذ به عثمان » .

ولقد روى الحاكم ما يلى :

« حرّم رسول الله ﷺ أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلى وغيره . فقال رسول الله ﷺ « يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته فيحدث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله » فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه ، وإنّ ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله .

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود عن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا أدرى ، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه .

روى أن أبو داود والترمذى وابن ماجه عن المقدام ابن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله .

وعن حسان بن عطية أنه قال : كان جبريل عليه السلام ، ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن .

وعن مكحول قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاكم الله القرآن ومن الحكمة مثليه » أخرجها أبو داود فى مراسليه .

وقيل لمطرف بن عبد الله : لا تحدثونا إلا بالقرآن – فقال ، والله ما نبغى بالقرآن ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله » فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد فقالت يا أبا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت كيت وكيت فقال : « ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ ، وهو فى كتاب الله ، فقالت المرأة لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته ، فقال لئن كنت قرأته فقد وجدته أما قرأت (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت : بلى : قال : فإنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ .

وبعد أن يذكر الإمام الشافعى الوجوه الثلاثة :

١ – بيان السنة للكتاب على ما فى الكتاب .

٢ – بيان السنة لمجمل الكتاب .

٣ – ما بين رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب .

يقول : وذلك ما نريد أن ننتهى إليه ، وهو بين فى وضوح من كل ما ذكرنا – وأى هذا كان ، فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذراً بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله ، وإن جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه فى دينهم ، وأقام عليهم حجته بما دلهم عليه من سنن رسول الله معانى ما أراد الله بفرائضه فى كتابه ليعلم من عرف منها ما وصفنا : إن سنته ﷺ ، إذ كانت سنة مبينة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب آخر .

فهى كذلك أين كانت لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال .

فى تدوين السنة

بدأ رسول الله ﷺ فى العهد المكى يبشر بالقرآن الكريم ورسالة التوحيد سرًّا ثم جهراً ، وكان الرسول ﷺ يلقى بالأضواء كلها على القرآن .

١ – ذلك أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، وهو بأسلوبه معجز ، وهو بمعناه يأخذ بالأفئدة وهو بعظاته يتملك القلوب ، وهو بمنطقه يسيطر على العقول .

٢ – ثم إن موضوع القرآن فى هذه الفترة كان موضوعاً محدداً : لقد كان جملة من القضايا تتصل بالغيب ، الغيب الإلهى . أو بتعبير آخر – توضيح العقيدة .

توحيداً – ورسالة – وبعثاً .

وكان أسلوب القرآن فى ذلك واضحاً لا لبس فيه ، بيناً بياناً سافراً .

٣ – وخشى رسول الله ﷺ ، أن يضيف النامس شيئاً من كلامه إلى القرآن ويخلطوه به .

وربما أسرفوا فى هذه الإضافة : فلا يستبين النامس الفواصل والفروق بين الأسلوب القرآنى الإلهى ، والأسلوب النبوى حينما يتلونهما فى أول العهد بالإسلام ممتزجين لا تمييز بينهما .

إن معالم الأسلوب القرآنى واضحة ، وكلام الله سبحانه أينما كان يتميز بصفات تجعله بمعزل عن غيره .

ولكن لابد من إيجاد الفرصة الكافية لترتسم هذه المعالم فى النفوس . أنى لابد من تقديم القرآن خالصاً صافياً لا يمتزج به غيره .

لابد من تقديمه كما أنزل فى ثوبه الإلهى البحت حتى تصبح المعالم معالم الإعجاز المعجز بينة سافرة .

من أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ . عن كتابة حديثه صلوات الله وسلامه عليه .

٤ – على أن هذه الآيات القرآنية ، فى العهد المكى . وهى تشرح التوحيد توحيد الله فى الصفات إنها وهى تشرح الهيمنة الإلهية على الكون ، على العوالم ، جميع العوالم ، ليست فى حاجة إلى بيان أوضح أو إلى تعبير أقوى .

بل إنه لا يتأتى أن يكون هناك بيان أوضح أو تعبير أقوى .

إنها وهى تهدم الشرك ، وتدك حصونه فتقول مثلا :

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أمّا يشركون ؟ أمَّنْ خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمّن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السُّوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أمّن يهديكم فى ظلمات البرّ والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، أإله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمَّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله . . قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) . .

إنها حينما تقول ذلك ، لا تحتاج إلى شرح أو تفسير وهى : حينما تتحدث عن البعث تقول : (ونفخ فى الصور فصعِقَ مَن فى السموات ومَن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نُفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقتِ الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقُضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . وَوُفِّيتْ كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) .

ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

وهى : حينما تتحدث عن الرسول ﷺ ونزول القرآن عليه تقول : (نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبينْ) . ليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

ثم هى ، حينما تقول ترغيباً وتبشيراً .

(إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك

متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون . سلام قولا من رب رحيم) ، فليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

وحينما تقول موعظة وإنذارا : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لِمَ شهدتم علينا ؟ ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) ، فليست بحاجة إلى شرح أو تفسير .

٥ - ثم إن الموضوعات التى تتحدث فيها هذه الآيات المكية : موضوعات غيبية ، والموضوعات الغيبية دقيقة وغاية فى الدقة ، فهل إذا تحدث الرسول ﷺ فى هذه الموضوعات ، ونقل عنه هؤلاء شفويًا ، وهم حديثو عهد بالإسلام وقريبو عهد بالجاهلية الوثنية . . . هل سيحسنون التعبير ، عنها أو يقولونها كما تحدث بها الرسول ﷺ ، فى دقته الدقيقة ، وفهمه الواعى عن الله سبحانه وتعالى ؟

من أجل ذلك ، أمر الرسول ﷺ ألا يكتب عنه غير القرآن ، وحكمة هذا الأمر وتعليله واضح كل الوضوح مما ذكرنا . ولكن فى فترة العهد المدنى تغير الوضع .

ها هو ذا الإسلام ينتشر انتشاراً واسعاً وسريعاً وها هى ذى الأمة الإسلامية الناشئة المؤمنة القوية : تبعث الأمل واسعاً فى أن دين الله سينتشر فى الآفاق وسيعم نوره الأقطار وستحطم كلمة الحق صروح الباطل ، وسيتم الله نوره ولو كره المشركون وسيعم لألاؤه برغم أنوف الكافرين .

ومن أجل هذه الأمة بدأ الوحى ينزل أرسالا أرسالا بالتشريع فى جميع ألوانه تشريع دولى وتشريع جنائى وتشريع مدنى ، وتشريع للعبادة ، وتشريع للأحوال الشخصية .

لقد بدأ التشريع الإلهى بنظم حياة الفرد : عبادة ومعاملة : حياته مع نفسه ، وحياته مع أمته ، وحياته مع الله تعالى :

لقد أخذ بنظم حياة الإنسان منذ أن يستيقظ فى الصباح إلى أن ينتهى به الأمر إلى الصحو من جديد فى صباح تال .

وينظم حياته من أسبوع إلى أسبوع ، ومن شهر إلى شهر ، ومن عام إلى عام . وينظم حياته فى ذاته ، وينظم حياته فى أسرته ، وينظم حياته فى مجتمعه . وينظم حياة المجتمع الإسلامى كله فى الكون كله . وما كان يتأتى أن يتعرض الوحى فى ذلك للتفصيلات المفصلة ، ولا للجزئيات الجزئية

التى لا تعد ولا تحصى ، ولكنه كان يفصل تفصيلا يشبه أن يكون تامًّا فى الأمور التى تكون عادة مثار النزاع وخصوصاً – الماليات كالميراث ، وكتابة الدين مثلا .

ويضع قواعد عامة شاملة تتضمن الجزئيات المتعددة ، فى موضوعات أخرى وكان لابد من أن يستفيض الرسول : ﷺ فى البيان والشرح والتفسير .

وكان المسلمون قد ألفوا الجو الإسلامى ، وألفوا الأسلوب القرآنى ، عرفوا مفهوم الشرك ومفهوم التوحيد ، وتبينت لهم الفروق الفاصلة بين العلم والجهل ، وبين الإسلام والجاهلية . وبين توجيه الوجه للذى فطر السموات والأرض وتوجيهه للأصنام أو الشهوات أو اللهو ، ولم يكن هناك من خوف على خلط أسلوب القرآن الكريم بغيره .

وكان لابد من تقييد شروح الرسول ﷺ ، وتفسيراته . لم تكن هناك ظروف توجب عدم كتابة الحديث ، وكانت هناك ظروف توجب كتابته .

ومن أجل ذلك أباح الرسول ﷺ كتابته بعد أن كان قد نهى عنها .

وبدأ الصحابة – رضوان الله عليهم يكتبون .

روى الإمام البخارى فى كتاب العلم ، باب كتابة العلم قال : « حدثنا محمد بن سلام قال : أخبرنا وكيع عن سفيان عن مطرف ، عن الشعبى ، عن أبى جحيفة قال : قلت لعلى هل عندكم كتاب .

قال : لا ، إلا كتاب الله ، أوفهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة .

قلت : فما فى هذه الصحيفة .

قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر . ويروى الإمام البخارى : حدثنا أبو نعيم : الفضل بن دكين ، قال : حدثنا شيبان ، عن يحيى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث ، عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك النبى ﷺ فركب راحلته ، فخطب فقال :

إن الله حبس عن مكة القتل ، أو الفيل : شك أبو عبد الله وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين ، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لأحد بعدى . ألا وإنها حلت لى ساعة من نهار ، ألا وإنها ساعتى هذه حرام ، لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين إما أن يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل .

فجاء رجل من أهل اليمن ، فقال : اكتب لى يارسول الله .

فقال : اكتبوا لأبى فلان .

فقال : رجل من قريش : إلا الإذخر ، يا رسول الله ، فإنا نجعله فى بيوتنا وقبورنا .

فقال النبى : ﷺ : إلاّ الإذخر إلا الإذخر .

قال : أبو عبيد الله : يقال : يقاد ، بالقاف .

فقيل : لأبى عبيد الله : أى شىء كتب له .

قال : كتب له هذه الخطبة .

ويقول البخارى :

حدثنا على بن عبد الله . قال حدثنا سفيان ، قال حدثنا عمرو ، قال أخبرنى وهب بن منبه ، عن أخيه قال سمعت أبا هريرة يقول : ما من أصحاب النبى ﷺ ، أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب . تابعه معمر ، عن همام عن أبى هريرة « انتهى البخارى » . ولقد اشتهرت كتابة عبد الله بن عمرو لكل ما يصدر عن رسول الله ﷺ حتى لقد نوقش فى ذلك من بعض القرشيين . يقول حسبما يروى فى سنن الدارمى وغيره : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر ، يتكلم فى الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فأومأ بأصبعه إلى فيه ، وقال : اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلاّ حق .

وروى عن أبى هريرة ـ كما يذكر الترمذى ـ أن رجلا من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله ﷺ فلا يحفظه فيسأل أبا هريرة فيحدثه ، ثم شكا قلة حفظه إلى الرسول ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : استعن على حفظك بيمينك . أى بالكتابة .

وروى عن رافع بن خديج ، كما يذكر فى كتاب « تقييد العلم » أنه قال : قلنا يا رسول الله « إنا نسمع منك أشياء ، أفنكتبها ؟ قال : « اكتبوا ولا حرج » .

على أنه قد روى عن رسول الله ﷺ أنه كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن . لعمر بن حزم وغيره ، كما يروى ذلك صاحب كتاب « جامع بيان العلم وفضله » .

هذا ما كان من بعض الصحابة فى عهد الرسول ، ﷺ ، وتكثر الروايات فيما كان من كتابة الصحابة بعد انتقاله صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى . ففى مسند الإمام أحمد عن أبى عثمان النهدى قال :

كنا مع عتبة بن فرقد . فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبى ﷺ ، فكان فيما كتب إليه .

إن رسول الله ﷺ قال : لا يلبس الحرير فى الدنيا إلا من ليس له فى الآخرة منه شىء إلا هكذا .

وقال بأصبعيه السبابة والوسطى ، قال أبو عثمان : فرأيت أنها أزرار الطيالسة . ولقد كان بعض الصحابة ينقل عن بعض ، فعروة بن الزبير رضى الله عنه ، ينقل عن خالته السيدة عائشة رضوان الله عليها فتقول له : يا بنى ، بلغنى أنك تكتب عنى الحديث ثم تعود فتكتبه .

فقال لها : أسمعه منك على شيء ، ثم أعود فأسمعه على غيره ، فقالت : هل تسمع فى المعنى خلافاً ؟ .

قال لا : قالت : لا بأس بذلك .

وبشير بن نهيك يكتب عن أبى هريرة ، ويجيزه أبو هريرة بالرواية عنه . يقول بشير : كما يذكر كتاب « السنة قبل التدوين » نقلا عن كتاب « المحدث الفاضل » وغيره – أتيت أبا هريرة بكتابى الذى كتبته ، فقرأته عليه ، فقلت : هذا سمعته منك ؟ قال نعم . وكان لابن عباس رضى الله عنه ألواح يكتب فيها عن الصحابة ، مثل أبى رافع صاحب رسول الله ﷺ .

بل لقد وصل الأمر بأنس رضى الله عنه الذى لازم رسول الله ﷺ ملازمة تكاد تكون تامة طيلة عشر سنوات ، إنه كان يملى الحديث على جموع من الطالبين ، فإذ أكثر الناس واحتاجوا إلى صحف يكتبون فيها ، جاء إليهم بها من عنده فألقاها إليهم ثم قال : هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله ﷺ وعرضتها عليه .

وكان يقول : رضى الله عنه ، لبنيه : يا بنى قيدوا العلم بالكتاب .

وكان الصحابة يتراسلون فى الأحاديث ، يستفسرون ويتذاكرون ، فمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، يكتب للمغيرة بن شعبة رضوان الله عليه عدة مرات يستفسر عن بعض ما يرويه المغيرة عن رسول الله ﷺ .

فيجيبه المغيرة بن شعبة مرة عما كان رسول الله ﷺ مثلا : يقول فى ختام كل صلاة : (اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا رادّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد) .

ويجيبه مرة أخرى بأن رسول الله ﷺ . نهى عن : قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .

ويكتب زياد بن أبى سفيان إلى السيدة عائشة رضوان الله عليها ، يسألها عن مسائل تتعلق بالحج ، ويذكر لها فتوى ابن عباس رضى الله عنه ، فتكتب له بما كان ﷺ ، يفعله فى الحج .

ويصف المرحوم الأستاذ مصطفى السباعى بعض الجهود التى قام بها الصحابة لجمع الحديث فيقول فى نهاية حديثه عن تلك الجهود .

فلما كان عهد عثمان سمح للصحابة أن يتفرقوا فى الأمصار واحتاج الناس إلى الصحابة . وخاصة صغارهم ، بعد أن أخذ الكبار يتناقصون يوماً بعد يوم ، فاجتهد صغار الصحابة بجمع

الحديث من كبارهم فكانوا يأخذونه عنهم .

كما كان يرحل بعضهم إلى بعض من أجل طلب الحديث ، فقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد ، وأحمد ، والطبرانى ، والبيهقى ، واللفظ له ، عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب النبى ، ﷺ عن رسول الله ﷺ ، لم أسمعه فابتعت بعيراً فشددت عليه رجلى ، ثم سرت إليه شهراً حتى قدمت الشام . فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصارى ، فأتيته ، فقلت له ، حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى المظالم لم أسمعه فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه .

فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يحشر الناس غُرْلاً بُهْماً . قلنا ومالهم ؟ قال : ليس معهم شىء ، فيناديهم نداء يسمعه من بُعْد كما يسمعه من قرب ، أنا الديّان لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار واحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصها منه .

ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة واحد من أهل النار يطلبه بمظلة حتى أقتصها منه حتى اللطمة .

قلنا : كيف ؟ وإنما نأتى عراة غُرْلاً بُهْماً ؟ قال : بالحسنات والسيئات .

وأخرج البيهقى وابن عبد البر عن عطاء بن أبى رباح أن أبا أيوب الأنصارى رحل إلى عتبة ابن عامر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، لم يبق أحد سمعه منه غيره فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى – وهو أمير مصر – فخرج إليه فعانقه – ثم قال ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ قال حديث سمعته من رسول الله ﷺ فى ستر المؤمن .

فقال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر مؤمناً فى الدنيا على كربته ، ستره الله يوم القيامة .

ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته ، فركبها راجعاً إلى المدينة فما أدركته جائزة مسلمة إلا بعريش مصر .

ولقد وقر فى أذهان الناس ، بصورة راسخة أن السنة لم تُدوَّن إلا فى القرن الثانى ، ومن أجل اقتلاع هذه الفكرة الخاطئة أطلنا فى نقل بعض النصوص التى تثبت الحقيقة وهى أن السنة دونت فى القرن الأول : فى عهد الرسول ﷺ ، وفى عهد الصحابة الأجلاء .

ومن أجل زيادة الأمر وضوحاً ، ومن أجل تأكيد الحقيقة فى الأذهان ، ننقل هنا أيضاً رأى الأستاذ الجليل ، السيد سليمان الندوى ، كبير علماء مسلمى القارة الهندية فى هذا العصر ، ننقله عن كتابه النفيس « الرسالة المحمدية » وهو محاضرات ألقاها فى جامعة مِدْراس

يقول : وإنى أكشف القناع ، لأول مرة فى ناديكم هذا ، بأن من زعم بأن الأحاديث النبوية لم تدوّن إلى مائة سنة أو تسعين سنة قد أخطأ والتاريخ يعارضه .

والسبب فى هذا الخطأ ظنهم أن أول كتاب فى الحديث النبوى : « كتاب الموطأ » لمالك ابن أنس ، وأول كتاب فى السيرة كتاب المغازى لابن إسحاق ، وهذان الإمامان الجليلان كانا معاصرين ، وتوفى الأول ١٧٩ هـ ، والثانى سنة ١٥١ هـ ، فاعتبروا العقود الأولى من القرن الثانى بداية تدوين الأخبار والسير .

والأمر ليس كذلك ، فإن بواكير التدوين ابتدأت قبل ذلك بكثير ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ عالماً جليلاً ، ولى إمارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩ ، وقد عهد إلى القاضى : أبى بكر بن محمد بن عمر بن حزم ، الذى كان إماماً فى الحديث والخبر أن يبدأ فى تدوين سنن النبى ﷺ وأخباره ، لأنه خاف على العلم أن يرفع شيئاً فشيئاً .

وخاف دروس العلم وعفاءه ، وقد ذكر هذا فى تعليقات البخارى ، والموطأ لمالك ، والمسند للدارمى ، فقام بذلك أبو بكر بن حزم ، وكتبت الأحاديث والأخبار والسنن فى القراطيس وأرسلت إلى دار الخلافة بدمشق ، ونسخت فى الصحف والكتب ، وبعث بها إلى البلاد الإسلامية وكبريات المدن يومئذ (مختصر جامع بيان العلم للحافظ بن عبد البر من ١٣٨) .

فأبو بكر هذا الذى علمتم مكانته من العلم والفضل وكان قاضياً بالمدينة المنورة ، هو الذى اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل لعلمه وفضله ولأن خالته عمرة كانت من كبريات تلميذات أم المؤمنين عائشة ، وكان ما روته خالته عمرة عن أم المؤمنين عائشة محفوظاً عنده ، فأوعز إليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالته ، وقد اختصها بالذكر فى كتابه إليه .

ويتابع السيد سليمان الندوى حديثه فيقول :

وأمر ، ﷺ ، فكتبت أحكام الزكاة وما تجب فيه ، ومقادير ذلك ، فكتبت مشروحة مفصلة فى صفحتين ، وبعث بصورة ذلك إلى أمراء البلاد وولاتها ، وبقيت محفوظة فى بيت أبى بكر الصديق ، وأبى بكر بن عمرو بن حزم . « الدار قطنى فى كتاب الزكاة ص ٢٠٩ » ، وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحكام الزكاة .

وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريس عدة وجاءه قوم من أهل الطائف بكراسة منها ليرويها عنه (العلل للترمذى ص ٦٩١) .

وكان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس (الدارمى ٦٩) وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده . عمرو بن شعيب « سنن الترمذى ٢٩٣ ص ٦١ ،

١١٣ » وكانوا يضعفون عمرو بن شعيب ، لأنه يروى من الصحيفة وكان ينبغى له أن يروى من حفظه .

وجمع وهب التابعى روايات جابر بن عبد الله وكانت عند إسماعيل بن عبد الكريم ، وضعفوه لأجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر ٣١٦) .

ويروى سليمان بن سمرة بن جندب أنه كان عند أبيه صحيفة فيها أحاديث ، وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمان – (تهذيب التهذيب) : ١٩٨ .

وجمع همام بن منبه روايات أبى هريرة وهو أكثر الصحابة رواية ، وأوعاهم حفظاً لأحاديث الرسول ﷺ ، فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفة همام ، وقد أوردها الإمام أحمد ابن حنبل فى الجزء الثانى من مسنده (ص ٣١٢ – ٣١٨ الطبعة الأولى) .

وكذلك بشير بن نهيك : كتب مروياته عن أبى هريرة فى كتاب وقرأه عليه .

(كتاب العلل للترمذى ص ٦٩١ ، والدارمى ص ، ٦٨ والسنن الكبرى للبيهقى ١٠ : ٢٨٠) . وذكر ابن حجر فى كتابه فتح البارى : أن أبا هريرة جاء برجل إلى بيته وأراه أوراقاً وقال : هذه رواياتى ، وقال الذى روى ذلك : إنها لم تكن مكتوبة بيده . (فتح البارى ١ : ١٧٤ – ١٨٥) . وكان أنس بن مالك – وهو معروف بكثرة الروايات يقول لأولاده يا بنى اكتبوا العلم وقيدوه بالكتابة (الدارمى ص ٦٨) .

وكان تلميذه « أبان » يكتب رواياته بين يديه (الدارمى ٦٨) .

وروى عن سلمى قالت : رأيت عبد الله بن عباس يستملى أبا رافع خادم رسول الله ﷺ ما كان ﷺ ، يفعل أو يقول (طبقات ابن سعد ١٢٣/٢/٢) .

والواقدى وهو من متقدمى المصنفين فى السيرة النبوية يقول : رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذى أرسله رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى سيد عمان مع كتب أخرى (زاد المعاد ٢ : ٥٧) .

وفى تاريخ الطبرى : أن عروة بن الزبير كتب جميع ما كان فى غزوة بدر مفصلا إلى عبد الملك الخليفة الأموى (الطبرى ١٢٨٥) .

ويقول سعيد بن جبير التابعى : كنت أكتب على الأقتاب ما أسمعه فى الليل من عبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس ، فإذا أصبحت كتبته واضحاً (الدارمى ص ٦٩) .

وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنه رواياته (الدارمى ص ٦٩) وكان نافع – وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة – يملى على الناس (الدارمى ص ٦٩) .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أنه أخرج كتاباً وقال : وايم الله ، هذا ما كتبته يد ابن مسعود (جامع العلم لابن عبد البر ص ١٧) .

ونتابع الحديث فى الموضوع على الرغم من أن الأمر أصبح واضحاً فنضيف إلى ما سبق ، أن مروان قد خطب فى الناس فذكر مكة وحرمتها فقال رافع بن خديج بصوت يسمعه الناس : والمدينة حرم حرمها رسول الله ﷺ وهو مكتوب عندنا فى أديم خـولانى إن شئت أن نقرئكه فعلنا .

فناداه مروان : أجل قد بلغنا ذلك ، (مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ١٤١) .

وأرسل الضحاك بن قيس كتاباً إلى النعمان بن بشير يسأله فيه عن السورة التى كان رسول الله ﷺ يقرؤها فى صلاة الجمعة غير سورة الجمعة .

فكتب إليه يقول : كان يقرأ (هل أتاك) (صحيح مسلم) وكتب عمر بن الخطاب إلى عتبة ابن فرقد كتاباً ذكر فيه : أن رسول الله ﷺ ، نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) .

« ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتاباً فسألته : ما هذا ؟ فقال : هذه الصادقة « فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس فى ذلك بينى وبينه أحد » .

ولما ولّى رسول الله ﷺ ، عمرو بن حزم اليمن وبعثه إليها أعطاه أحكاماً مكتوبة فى الفرائض والصدقات والديات (كنز المال ٣ : ١٨٦) .

وتلقى عبد الله بن حكيم كتاباً من رسول الله ﷺ ، فيه أحكام الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبرانى ص ٢١٧) .

ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع إلى بلاده حضرموت ناوله رسول الله ﷺ كتاباً فيه أحكام الصلاة والصوم والرّبا والخمر وغير ذلك (الطبرانى ٢٤٢) ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال إلى أصحاب رسول الله ﷺ فى نصيب المرأة من دية زوجها قام الضحاك بن سفيان : فقال :

نعم عندنا كتاب من رسول الله ﷺ ، يبين فيه ذلك (الدار قطنى ٢ : ٤٨٥)[١٤٨]

وقد بلغ عدد الصحابة رضى الله عنهم فى آخر حياة النبى ﷺ – عندما حج حجة الوداع مائة ألف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابى مذكورة أسماؤهم وأحوالهم فى كتب التاريخ التى أفردت تدوين أحوالهم خاصة . وأن التاريخ لم يهتم بتدوين أحوالهم ، ولم يحفظ لنا شئونهم إلا لأن كل واحد منهم حفظ شيئاً من أقوال النبى ﷺ ، وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

(١٤٨) انظر السنة قبل التدوين ، والسنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ، ورجال الفكر والدعوة .

لقد توفى رسول الله ﷺ ، سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقى فريق من كبار الصحابة بعده إلى سنة أربعين ، وبقى بعد ذلك من الصحابة ، الذين كانوا أحداثا فى حياة النبى ﷺ ، عدد غير قليل ، فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد ، وانطفأ كل سراج أوقد بنور النبوة .

وإليكم أسماء آخر من مات من الصحابة ، والبلاد التى ماتوا فيها وسنوات وفاتهم .

آخر الصحابة موتًا	المدن التى توفوا فيها	سنة الوفاة
١ – أبو أمامة	الشام	٨٦
٢ – عبد الله بن الحارث بن جزء	مصر	٨٦
٣ – عبد الله بن أبى أوفى	الكوفة	٨٧
٤ – السائب بن زيد	المدينة	٩١
٥ – أنس بن مالك	البصرة	٩٣

وأنس بن مالك هذا الذى كان آخر من بقى من الصحابة كان الخادم لرسول الله ﷺ ، واستمر فى خدمته عشر سنوات متوالية .

ومعظم هذه الثروة الحديثية كما يقول الأستاذ الجليل أبو الحسن الندوى قد كتب ودوّن بأقلام رواة فى العصر الأول . وقد يزيد ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريراً فى العصر النبوى وفى عصر الصحابة ، رضى الله عنهم ، على عشرة آلاف حديث ، إذا جمعت صحف ومجاميع أبى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلى ، وابن عباس ، رضى الله عنهم ، فيمكن أن يقال : إن ما ثبت من الأحاديث الصحاح واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودوّن فى عصر النبوة وفى عصر الصحابة قبل أن يدوّن الموطأ والصحاح بكثير .

جمعت السنة إذن – جميعها تقريباً – فى عهد الرسول ﷺ وعهد الصحابة . جمعت دون ترتيب ولا تنسيق .

جمعت متفرقة متناثرة ، يكتب هذا الحديث والحديثين ويكتب الآخر المائة والمائتين ويزيد الثالث عن ذلك ، ويملى الرابع من حفظه على الآخرين ، وهكذا ، وفى ذلك لم يكن لأحد اهتمام بالتنضيد أو التنسيق .

يقول الأستاذ العالم الورع المثبت أبو الحسن الندوى فى كتابه « رجال الفكر والدعوة » ما يلى :

وإذا جمعت هذه الصحف والمجاميع ، وما احتوت عليه من الأحاديث كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث :

وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله – من غير نظام وترتيب – فى عهد الرسول ﷺ ، وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم .

ويتحدث الأستاذ أبو الحسن الندوى عن الوهم الشائع بين الناس من أن السنة لم تدون إلا فى القرن الثالث : ويعلل هذا الوهم تعليلا منطقيا فيقول :

وقد شاع فى الناس – حتى المثقفين والمؤلفين – أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا فى القرن الثالث الهجرى ، وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب فى القرن الثانى وما نشأ ذلك الغلط إلا عن طريقتين .

الأولى : أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول ، لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة .

الثانية : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت فى القرن الأول : مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا يزال قليلا .

وقد نبه على ذلك العلّامة مناظر أحسن الكيلانى ، رئيس القسم الدينى سابقاً فى الجامعة بحيدر أباد فى كتابه العظيم « تدوين الحديث » يقول رحمه الله : وقد يتعجب الإنسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال : إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث .

وكذلك يقال عن أبى زرعة .

ويروى الإمام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة .

ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابى من ثلاثمائة ألف حديث ، ولا يعرف كثير من المتعلمين – فضلا عن العامة أن الذى يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التى عنى بها المحدثون .

فحديث « إنما الأعمال بالنيات » مثلا يروى من سبعمائة طريق .

فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل من الأحاديث .

فالجامع الصحيح للبخارى لا تزيد الأحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين .

وأحاديث مسلم يبلغ عددها أربعة آلاف حديث .

وهكذا لا يبلغ عدد الأحاديث المروية فى كتب الصحاح الستة ومسند أحمد وكتب أخرى خمسين ألف حديث منها الصحيح ، ومنها السقيم ، ومنها المتفق عليه ، ومنها المتكلم فيه .

وقد صرح الحاكم أبو عبد الله – الذى يعد من المتساهلين المتوسعين – أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف (توجيه النظر ص ٩٣)

ويقول الأستاذ :

ولم ينتصف القرن الثانى حتى كانت حركة الجمع والتدوين أنشط وأقوى ، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن . .

ابن شهاب الزهرى وابن جريج المكى وابن إسحاق – معمر اليمنى – سعيد بن أبى عروبة المدنى – ربيع بن صبيح – سفيان الثورى – مالك بن أنس – الليث بن سعد – وابن المبارك – ثم تتابع الناس .

فى موافقة السنة للقرآن

أن تكون موافقة لما جاء فى القرآن فتكون واردة حينئذ مورد التأكيد ومن أمثلة ذلك .

١ – قوله ﷺ : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه » ، رواه الديلمى فإنه يوافق قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) .

٢ – قوله ﷺ : « اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان عندكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » فإنه يوافق قوله تعالى : (وعاشروهن بالمعروف) .

٣ – قوله ﷺ : « إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته » يوافق قوله تعالى : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) .

أن تكون دالة على حكم سكت عنه القرآن ومن أمثلة هذا النوع . .

١ – قوله ﷺ فى البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .

٢ – قوله ﷺ فى الجنين الخارج ميتاً من بطن أمه الذكاة « وذكاة الجنين ذكاة أمة » .

٣ – الأحاديث الواردة فى تحريم ربا الفضل .

٤ – الأحاديث الواردة فى تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطيور وتحريم لحوم الحمر .

فى أقسام الحديث النبوى

لقد اعتمد أسلافنا منهج الرواية أولا ، ثم بينوا عن طريق هذا المنهج نفسه : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والموضوع .

وكتبوا فى كل ذلك . ولقد ساهم الإمام السيوطى رضى الله عنه بقسط وافر فى هذا المجال وكتابه اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة أشهر من أن يتحدث عنه ، ولم يكتف أسلافنا ببيان الموضوع والضعيف والحسن والصحيح ، وإنما اتخذوا قواعد عامة منها – مثلا – أن القرآن الكريم وعمل الرسول ﷺ وعمل الصحابة كل ذلك مهيمن كمقياس للصحة والبطلان .

وقواعد الدين العامة وأصوله الصحيحة ومبادئه بل فروعه . . . إن كل ذلك واضح لدى المسلمين منذ . .

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينًا) اعتمد أسلافنا منهج الرواية ، والتزموه ، ونقدوا المنتقد منه ، وأثبتوا ما ثبت وزينوا ما زان ، وسجلوا كل ذلك ، فحققوا بهذا ما هو جدير بهم من سعة الأفق ، ومن هذه النهضة العلمية الأصيلة أبانوا أنهم أفهم الناس للروح العلمية الأصيلة وآفاق البحث فى أدق صوره .

فجزاهم الله عن العلم وأهله خيراً .

فى رواية الحديث عن المتخصصين

مثل من الإمام مالك بن أنس

* * *

وكان يتحرى التخصص المتخصص ويروى عنه – فيما يتعلق بناحية التخصص أنه قال : « لقد أدركت بالمدينة أقواماً لو استسق بهم القطر لسقوا . أى أنهم من الصلاح بحيث لو دعوا الله أن ينزل المطر لاستجاب لهم) وقد سمعوا من العلم ، والحديث شيئاً كثيراً وما أخذت عن واحد منهم ، وذلك أنهم كانوا قد ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد .

ويقول هذه الكلمة البالغة العمق :

إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممّن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين – وأشار إلى المسجد – فما أخذت عنهم شيئاً ، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن .

ويريد أن يقول فى هؤلاء وأولئك إنهم ليسوا من أهل الحديث . ومن الجائز ، وهم غير متخصصين فى هذا الشأن ، أن يقرر بهم أو أن يرووا حديثاً ضعيفاً ، ويريد أيضاً أن يقول : إن الصلاح غير العلم ، وإنه لا يلزم من وجود الزهد أو الأمانة أن يكون الزاهد أو الأمين نقادة متثبتاً .

ومع هذا التحرى ومع هذا الجهد فى التثبت فإنه ماكان يروى كل ما يسمع ويقول : إن عندى لأحاديث ما حدثت بها قط ، ولا سمعت منى ، ولا أحدث بها حتى أموت ، وقال مالك يوماً : سمعت من ابن شهاب أحاديث لم أحدث بها إلى اليوم .

فقال له قائل : لِمَ يا أبا عبد الله . فقال : لم يكن العمل عليها فتركتها .

ورد مالك على السائل هو المفتاح الذى نفسر به هذا الموضوع الذى يتساءل عنه الناس كثيراً ، وذلك أن مالكاً رضى الله عنه كان قد اتخذ مبادئ نقدية محددة لقبول الحديث منها :

١ – أن يكون المُحدِّث من رجال الحديث متخصصاً فيه .

٢ – وأن يكون صاحب ذاكرة قوية .

٣ – وألاّ يكون من أصحاب الأهواء .

٤ – وألاّ يخالف الحديث أصلا من أصول الدين .

٥ – وألاّ يتعارض فى وضوح مع عمل أهل المدينة .

فإذا فقد شرط من هذه الشروط فى الحديث فإن مالكاً لا يرويه ، ومع أن ابن شهاب ثقة ، ومع أنه من شيوخ الإمام مالك فإنه لما تعارضت بعض أحاديثه مع عمل أهل المدينة لم يرو الإمام عنه ما تعارض عنها وهكذا فيما روى لما لم يستكمل شروط الصحة .

فى شرح قول رسول الله ﷺ

« إنما الأعمال بالنيّات ، وإنما لكل امرئ ما نرى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

* * *

يدلنا هذا الحديث الشريف على أن صحة الأعمال الصالحة ، إنما هى بالنية الخالصة لله ورسوله .

والواقع أنه ليس الأمر أمر النية فحسب ، وإنما الأمر أيضاً خلوص النية فى أعمال الخير كلها ، ومعنى خلوص النية أن يريد الإنسان بالعمل الصالح وجه الله وحده عن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى ، ثم يقول رسول الله ﷺ : يأيها الناس أخلصوا أعمالكم ، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ولا تقولوا هذه لله وللرحمة فإنها للرحم وليس لله منها شىء .

ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شىء .

فى حديث

« الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا »

* * *

ظاهر المعنى أنَّ كل امرئ يتصرف بما طُبع عليه ، فأهل الخير والبر والإحسان إذا لَيّن الله قلوبهم بالإيمان الكامل وعمّرها بالعلم النافع كانوا خير الناس لتوافر الدافعين :

أولهما : العلم المبين للخير والمميز للأصلح .

وثانيهما : حسن المعدن وكرم الأصل فى التزام المروءة وتحرى الخير .

فى بر الوالدين

روى أبو داود عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال :

يارسول الله هل بقى من بر أبوىّ شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما .

ومن المستحب للأموات قراءة القرآن فى البيوت بعيداً عن المقابر - مع عدم إهمال الدعاء والاستغفار وفاء بحقهما قياماً بحق برهما (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) .

أما إذا تركها المسلم فيكفيه منها الدعاء والاستغفار وإلا كان مقصراً فى حق والديه ناكراً لجميلها عليه ، ومن سمات المؤمنين الوفاء وسيعاقب بقدر تفريطه وإهماله .

فى معنى علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل

لم يعتبر المحدثون الكلمة القائلة : علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل لم يعتبروها حديثاً ، ولم تثبت عندهم ، وإن كان معناها فى ذاته صحيحاً فإن أنبياء بنى إسرائيل كانوا قائمين بالوحى المتتابع على حفظ دين الله . ولما ختمت النبوة بسيدنا محمد ﷺ قام على الدين – جيلا بعد جيل – العلماء الأثبات والحفظة والثقات .

فى حديث

« الميت يبعث فى ثيابه التى يموت فيها »

رواه أبو داود والحاكم وابن ماجه وأبو سعيد الخدرى

* * *

ومعناه التوجيه إلى دوام تطهير الثياب من النجاسة وهذا ما فهمه أبو سعيد الخدرى حينما طلب ثياباً جديدة يستعد بها لاستقبال الموت ، وقيل إن المراد بالثياب العمل أى يبعث على عمله الذى مات عليه حسناً أو قبيحاً ، والذى نراه أن المراد الثياب الملبوسة وأن الحديث يفيد وقوع البعث للأجساد بأوضح بيان حيث إن البعث سيشمل الثياب التى مات الإنسان فيها فضلاً عن الجسد .

فى حديث

« ارحموا اليتامى وأكرموا الغرباء . . إلخ »

ليس بالقوىّ ، فقد قال ابن الديبغ الشيبانى وردت أحاديث فى إكرام الغرباء وكلها ضعيفة ومن المعروف أن الإسلام يحث على إكرام اليتيم ، ويجعل أكل أموال اليتامى أكلاً للنار فى البطون .

والله تعالى يقول لرسوله ﷺ يحث على إكرام اليتيم ويجعل أكل أموال اليتامى أكلاً للنار فى البطون : (إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيراً) . والله تعالى يقول لرسوله ﷺ : (ووجدك يتيماً فآوى) وأما المراد بالغريب هنا فلعله غريب الدين ، إن الذى يتمسك بدينه حال الفتن وانتشار الضلال كالغريب كما فى حديث بدأ الإسلام غريباً . فطوبى للغرباء قيل ومن الغرباء قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس .

فى شرح حديث

روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

وقد تحدث رسول الله صلوات الله عليه عن علامات المنافق ، فكانت العلامة الأولى من علاماته حسبما رواه البخارى ومسلم أنه « إذا حدث كذب » .

فالكذب إذن مجانب للإيمان ، وهو كما يروى عن رسول الله صلوات الله عليه يسود الوجه ، من كل ذلك نتبين : أن الكذب حرام ، وأن الكاذب آثم . ومما له مغزاه : إن بعض الفرق الإسلامية تجعل حرمة الكذب أشد من حرمة الزنى والسرقة والله سبحانه وتعالى يقول : (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) .

شرح حديث

عن أبى هريرة رضى الله عنه فيما رواه مسلم قال : قال رسول الله ﷺ « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا كذا » .

* * *

إن هذا الحديث الشريف يساند الآيات القرآنية التى تحدد موقف الإسلام من تبرج المرأة تحديداً لا لبس فيه

يقول سبحانه : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) .

يأمر الله تعالى المسلمات ألا يبدين من زينتهن إلا ما ظهر منها ، وهو الوجه والكفان ، وأن الإيمان السليم ، والإسلام الصحيح ، والخلق الكريم ، كل ذلك يريد للمرأة إجلالاً لها واحتراماً – أن تنأى بنفسها وتسمو بكرامتها عن أن تعتبر نفسها سلعة تعرض نفسها شبه عارية فى الشوارع والمجتمعات على أنظار المارة والمجتمعين .

وما من ريب فى أن المرأة العاقلة تأبى عليها عزتها ، ويأبى عليها دينها ، أن تضع نفسها متعمدة موضع الخسة بكشفها ما حرم الله أن يكشف ، وأن تعرض نفسها فى غير كرامة إلى أن تصب عليها لعنة الله والملائكة وصالح المؤمنين .

ومما لا شك فيه أن الشبان فضلاً عن الرجال يحتقرون ويزدرون هذه السلع من الفتيات والنساء اللاتى يعرضن أجسادهن رخيصة مهينة وأن الملاحظة العابرة عن الملاحظة المتروية ترشد فى صورة واضحة إلى أن احترام الشبان والرجال إنما هو للمحتشمات فى الطرقات والمواصلات .

يقول الله تعالى : (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) .

فى شرح حديث

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

* * *

فما هو التطبيق الواجب لهذا الحديث بالنسبة للاعتداءات الإسرائيلية على الأماكن المقدسة وأرض العرب .

التطبيق الواجب لهذا الحديث هو أن على المسلمين أن يعلموا أن الجهاد واجب مقدس على كل مؤمن ومؤمنة كل فيما يخصه ، وللجهاد مقدمات تحرز له النصر وتنأى بالمجاهدين عن الهزيمة .

تلك المقدمات هى قيام كل مؤمن ومؤمنة بواجب السمع والطاعة : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) سورة الأنفال آية ٢٤ .

والنصر الذى يريده كل مجاهد من الله لا يأتى إلا بمعونته ومدده وهما لا يكونان لمن انحرف عن صراط الله الذى أمرنا به قال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون) ، سورة الأنعام .

ولأنه جل جلاله جعل نصره للمؤمنين مترتباً على نصر المؤمنين لدينه قال تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) . سورة محمد .

وقال تعالى : (ولينصرن الله من ينصره) ، ولانحراف بعض المحاربين فى جيش رسول الله يوم حنين حلت الهزيمة بالمسلمين أولا ، ولما ثابوا إلى رشدهم أنزل الله عليهم سكينته وأمدهم بجنده وتوّجهم بنصره .

قال تعالى : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) . . إلى قوله (جزاء الكافرين) . سورة التوبة .

فمها استعد المسلمون بالسلاح والرجال فإنهم لن يحرزوا نصراً ، ولن يأتيهم مدد الله عز وجل بالملائكة وغيرهم إلا إذا استمسكوا بدينهم وجعلوه الشعار لهم فى كل شىء فحسبنا فى هذا قول الله تعالى : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) . . . إلى (شديد العقاب) : سورة الأنفال . ويقول النبى ﷺ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) . سورة الأنفال .

وذكر الله فيه الصلوات وغيرها من الفرائض وينتظم الذكر المعروف الذى هو تنزيه الله وتهليله وحمده وهذا النوع من الذكر لا يستعصى على المجاهد فى سبيل الله ، بل إن الصلاة نفسها يستطيع أن يؤديها المجاهد وهو يقود الطائرة والدبابة والسيارة ، ويصوب المدفع إلى صدر عدوه ، ويستطيع أن يؤديها وهو يمشى على رجليه ، وذلك بأن يشير برأسه إلى الركوع والسجود وغيرهما من أركان الصلاة قال تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله) . سورة البقرة .

وإسرائيل التى نعانى منها لا تستطيع الصمود أمام قوم آمنوا بربهم فأمدهم بجنده وأيدهم بنصره وعليهم أن يستكملوا عدة الجهاد من أنواع السلاح كافة ، ثم ينطلقوا بجحافلهم إلى تلك البقاع المقدسة غير مستجيبين لنداءات مجلس الأمن وهيئة الأمم فإنها لم تنشأ لخدمة الإسلام بقدر ما أنشئت لخدمة المطامع الاستعمارية .

إن هذا الحديث الشريف يساير القرآن الكريم والروح الإسلامية كلها ، ويشرح ما يجب أن يكون عليه المسلمون فى حياتهم من الاجتماع على الإيمان واتخاذه أساساً للوحدة والأخوة ، فالحديث الشريف يبدأ بقوله « المؤمن للمؤمن » ومعنى ذلك أن الانطلاق نحو الأخوة والمحبة والوحدة وجمع الشمل إنما يكون قائماً على الإيمان فإذا كان الإيمان أساساً أتى حتماً ما يترتب عليه من أن يشد المؤمن أزر المؤمن وأن يكون معه كالبنيان المتماسك الذى تكون كل لبنة فيه مستندة إلى أخرى وساندة لها .

وإذا اتخذ الإيمان أساساً انتهى التفرق والخلاف ، وتحقق فى العصر الحاضر ما تحقق فى الماضى الذى عبر الله عنه بقوله تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) .

ولابد من هذه الوحدة ، لابد منها لمصلحة العرب أنفسهم من أجل أوطانهم ، ولابد منها دينيًّا فالله سبحانه وتعالى يقول :

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) .

ويقول سبحانه : (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين) .

والواقع أن الصهيونيين يعملون جاهدين بكل الوسائل على التفرقة بين المسلمين فى كل مكان ، كان هذا ومايزال دأبهم وديدنهم وحادثة شاس بن قيس مشهورة .

لقد مر على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم فغاظه صلاح ذات بينهم وقال فى نفسه ، قد اجتمع فلان وفلان قبله فى هذه البلاد ونالنا معهم إذا اجتمع مَلَؤهم بها من قرار ، وأمر شابًّا من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصة يذكرهم فيها بيوم بعاث ، ذلك اليوم الذى انتصر فيه الأوس على الخزرج .

وتكلم الغلام وأنشدهم ما قيل فى ذلك اليومين من أشعار ، فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا ، وقال بعضهم لبعض إن شئتم عدنا إلى مثلها ، وبلغ رسول الله ﷺ ذلك الأمر فخرج إليهم فيمن معه من الأنصار والمهاجرين ، فذكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم إخواناً متحابين وكان مما قال « أدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية » ومازال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضاً واستغفروا الله جميعاً ، فما رئى يوم أقبح أولا وأحسن آخراً من ذلك اليوم ، وماكانت هذه المؤامرة الأولى أو الأخيرة من مؤامرات اليهود ضد الأخوة العربية ولقد تغلب عليها العرب بمبدأ الأخوة التى غرسها الإسلام منهم .

وإذا كان هذا المبدأ قد نجح فى الماضى فهو لا محالة ناجح فى العصر الحاضر . ومما لاشك فيه أن الصهيونية تعمل جاهدة على غرس بذور العداوة بين الدول العربية حتى يفشلوا وتذهب ريحهم ولكن السلام الوحيد الذى يجب أن نتحصن به دائماً لرد باطلهم الخبيث إنما هو التمسك بالأخوة .

فى شرح الحديث

«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكركم بالآخرة» .

* * *

فأباح ﷺ بذلك زيارة القبور ، وعلل السبب فى ذلك وهى تذكر أمور الآخرة ، وما يتصل بها من الموت وعذاب القبر .

ويماثل هذا الحديث ما رواه أحمد ومسلم وغيرهما عن زيارة النبى ﷺ ، لقبر أمه وقوله فزوروا القبور ، فإنها تذكر بالموت .

هذا بالنسبة للرجال :

أما بالنسبة للنساء : فإن كثرة زيارة القبور بالنسبة لهن ممنوعة ، لما روى من أنه ﷺ لعن زوّارات القبور . .

قال القرطبى : هذا اللعن إنما هو للمكثرات من الزيارة ، لما تقتضيه الصيغة من المبالغة . . ولعل السبب ما يفضى إليه ذلك من تضييع حق الزوج . وما ينشأ منهن من الصياح ونحوه .

فإذا خفت زيارتهن . . ولم تقترن بسوء من كشف عورة أو قول قبيح ونحو ذلك فلا حرج منها لما روى من أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عما تقول إذا زارت القبور فقال :

قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين . . يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين . . وإنا إن شاء الله بكم لاحقون .

وعلى ذلك فزيارة القبور مندوبة للرجال جائزة للنساء وبشرط ألا يقترن بها ما يتنافى مع الغرض منها وهو التذكير بالموت والتذكير بالآخرة .

فى الشرك الخفى

الشرك الخفى مرادف للنفاق ، وذلك لأن النفاق أن يظهر المرء خلاف ما يبطن ، فيبدو المنافق فى صورة المؤمن وهو فى حقيقته من الكافرين ، أنه يستر شركه ويخفيه ولكن الله تعالى يكشفه بعلاماته ، ويبرز أهم صفاته فى كثير من الآيات القرآنية التى تحدد منابع الإيذاء فى هذا الشرك ، وأسباب التنفير منه ، ومواطن الخطر الناتجة عنه ، يقول تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله

وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) .

وتتابع الآيات فى كشف صفاتهم وتمثيل حالهم بأظهر صورة ، وأبلغ تعبير . وينتج عن هذا الشرك الخفى أو النفاق شرور كثيرة تلفح المؤمنين بأذاها ، وتلسعهم بشرورها ، ومن هذه الشرور المؤذية الرياء ، ويتحدث القرآن عن ذلك فيقول : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) .

وينتج عن الرياء أن يعطى المسلم ثقة للمرائى ، فيستغل هذه الثقة فى إيذائه وإيصال الشرور إليه ، ومن هنا قال الرسول ﷺ .

« إياكم وشرك السرائر ، قالوا : وما شرك السرائر يا رسول الله ؟ قال الرياء » . ومن الشرور المؤذية للشرك الخفى الحسد ، لقد كان المنافقون يفرحون لمصيبة المسلمين ويحزنون لما يسرهم ، يقول تعالى : (إن تُصِبْكَ حسنةٌ تسُؤْهم وإن تُصِبْك مصيبةٌ يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) .

وأظهر هذه الشرور المؤذية تثبيط الهمم ، والعمل بالقول والفعل على إطفاء نور الإسلام والقضاء على المسلمين ، ويتمثل ذلك فى وضوح فيما حدث فى غزوة الأحزاب ، لقد كان الرسول ﷺ ، يبشر بالفتح وكان المنافقون يقولون : هذا محمد يعدنا بكنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على بيته بالمدينة ، ويصور القرآن ذلك فيقول :

(وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) . ويجمع صفات المنافقين فى وضوح ، وشركهم الخفى المانع للخير الجالب للشر ، قوله سبحانه : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدَّقنَّ ولنكونن من الصّالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقَوْنه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذِبُون) .

أما الطريقة المثلى للتخلص من هذا الشرك وآثاره ، فتتمثل فى العمل بقول الله سبحانه : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثُقفوا أخذوا وقُتّلوا تقتيلا . سُنَّة الله فى الذين خلَوْا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

فى شرح الحديث

« مَن لم تنهه صلاته »

* * *

للعمل المقبول علامات ودلائل تدل عليه ، وترشد إلى بلوغ القصد به ومنه ، وقد حدد القرآن وحددت السُّنَّةُ كثيراً من هذه العلاقات والدلائل ، يقول تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ، وإذاتليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقًّا) . ويقول : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) . ويقول ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ولا يعنى ذلك أن المخطئ لا تقبل له صلاة ، لأن الإنسان فى حرب مع الشيطان ومهما كان تسلحه وتيقظه ، فقد تعتريه غفلة أو فترة فيتمكن الشيطان منه فيقع فى المعصية . . ولكن إيمانه القوى وعمله الصالح سرعان ما يعود به إلى ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن ويجد من عفو الله ومغفرته ما يتيح له السير من جديد فى طريق الخير والصلاح . . وقد يقف المرء على حافة المعصية فيؤذن المؤذن فيدخل إلى الصلاة ، وما يكاد يفرغ منها حتى يجد نفسه وقد هدأت ، وغرائزه وقد استسلمت ، ويقينه وقد استيقظ . فيحس بأثر الصلاة إحساساً فى غاية القوة والظهور . وحديث : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » رجح الحافظ ابن كثير أنه من كلام بعض الصحابة لا من كلام الرسول ﷺ .

وليس من شك فى أن الصلاة التى يداوم عليها المؤمن فلا تؤثر فى سلوكه وقوله وعمله هى صلاة غير كاملة ، لأنها غير مؤثرة ، وعلى المؤمن إذا ما واجه المنكر ، أو قابل الفحشاء أن يتذكر موقفه بين يدى الله فى الصلاة ليرتدع عن ذلك .

فى محاربة اكتناز الأموال وحبسها

قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم وتشب معه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر .

ما يجب شرحه :

١ – اثنتان : خصلتان سيئتان .

٢ – لماذا كان الحرص على المال والحرص على العمر ؟

ما يراعى عند الحديث :

١ – كنز المال وعدم استثماره وحرمان المجتمع من الانتفاع به منهى عنه شرعاً فى سبيل الحد من ضخامة الأموال أوجب الإسلام الصدقات ، وفرض الزكاة ، وجعلها ركناً من أركان الدين ، وأوجب المساهمة فى نفقات ما يعرض للأمة وما يجب لها من عدة الدفاع لحفظ الأمن والنظام أو المساهمة فى أعمال البر .

٢ – الآيات التى تتعرض للموضوع .

(ليس البرّ) البقرة آية ١٧٧

(وأنفقوا فى سبيل الله) البقرة آية ١٩٥

(والذين يكنزون الذهب والفضة) التوبة آية ٣٤

٣ – آفة الحرص على العمر .

٤ – الإسلام يدعو إلى بذل الروح رخيصة فى سبيل الله والوطن .

فى عدد الرسل من السنة

لم يرد فى عدد الأنبياء والمرسلين أثر صحيح إلا ما روى عن أبى ذَرٍّ رضى الله عنه ، وبسند قيل إنه مقبول ، وفيه . قلت يا رسول الله : كم الأنبياء ؟ . . قال ، مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا ، قلت : يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ – قال ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب . قلت : فمن كان أولهم ؟ – قال : آدم قلت : أنبى مرسل . . قال : نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قبيلا ثم قال : يا أبا ذر . . أربعة سريانيون « آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خطَّ بقلم ، ونوح . . وأربعة من العرب ، هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر . . وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى . وأول الرسل آدم وآخرهم محمد . فالذين كلفوا برسالة من الأنبياء بحسب هذا الحديث الذى قيل إنه مقبول ثلثمائة وثلاثة عشر ، والأنبياء الذين لهم

علاقة بمكة من حيث بناؤها أو النشأة فيها الذين ذكرهم القرآن الكريم هم إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام . والرسل الذين ينتمون إلى العرب من هؤلاء كما فى الحديث : هود وشعيب وصالح ومحمد عليه الصلاة والسلام .

أما الرسل والأنبياء الآخرون الذين لهم علاقة بمكة والأنبياء الآخرون الذين ينتمون إلى العرب فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه .

وهذا الذى ذكرناه هو أقرب الآراء إلى الصحة .

فى حرمة العود فى الهبة

قال ﷺ فيما روى البخارى : (العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه) .

أى لا ينبغى لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخس الحيوانات فى أخس أحوالها .

قال تعالى : (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى) . ومن هنا حرم الإسلام على المرء الرجوع فى هبته ولم يجز له هذا الرجوع ولو دفع ثمن هبته لمن وهبها له فى سبيل الحصول عليها .

روى البخارى بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « حملت على فرس فى سبيل الله فأضاعه الذى كان عنده ، فأردت أن أشتريه منه وظننت أنه بائعه برخص ، فسألت عن ذلك النبى ﷺ فقال : لا تشتره وإن أعطاكه بدرهم واحد ، فإن العائد فى صدقته كالكلب يعود فى قيئه » .

لقد أعطى عمر رضى الله عنه رجلا فرساً ليحارب عليه فأهمل الرجل العناية بالفرس أو رغب فى بيعه بثمن بسيط وأراد عمر شراءه فمنعه النبى ﷺ من ذلك لأنه لا يحل .

فمن أسدى إلى شخص معروفاً يحرم عليه الرجوع فيه ، وإذا تصرف المهدى إليه فى هذا المعروف فلا رجوع لصاحب المعروف عليه . وحجه بهذا المعروف نافذ ، ورجوع صاحب المعروف فيه لا يبطل الحج .

وثواب صاحب المعروف على ذلك مستمر حيث لم يحصل على ما رغب الرجوع فيه من المعروف وإن قل عن الثواب قبل الرغبة فى الرجوع ، حيث دلت تلك الرغبة على ضعف عاطفة الخير عنده .

فى السُّنَّةِ الحسنة والسُّنَّةِ السيئة

« مَن سَن سُنة خير فاتبع عليها فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقوص من أجورهم شيئاً ومن سَن سُنة شر فاتبع عليها كان عليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منقوص من أوزارهم شيئاً » .

* * *

إن أعمال الخير يُثاب عليها مَن فعلها ومن اقتدى به فى فعلها ، وإن ثواب المبتدئ بفعلها يزيد بزيادة عدد من اقتدى به فيها ، إذْ له مثل أجر من اقتدى به ، ولكن هذه الزيادة بسبب اقتداء الناس به لا تؤثر فى أجر المقتدى ، فلا يتوهمن إنسان أن زيادة أجر الدّاعى إلى الخير أو من ابتدأ العمل الصالح تكون بالتنقيص من أجر التابع وضمه إلى أجر الداعى .

إن الأمر ليس كذلك بل للتابع أجره كاملا وللمتسبب الأصلى أجر دعوته إلى الخير بفعله أو بقوله فضلا عن أجر عمله للخير إذا فعله ولهذا عظم شأن الفقيه الداعى المنذر حتى فضل على العدد الكثير من العباد ، لأن نفعه يعم الأشخاص والعصور .

وإذا كان هذا العمل الصالح فالأمر فى العمل غير الصالح على العكس ، إن من دعا إلى ما يخالف الدين يحمل وزر عمله ، وإذا اقتدى به غيره فيه تحمل المقتدى وزر عمله ، وتحمل المتسبب وزر التسبب فى هذا العمل .

ومما ينبغى أن يفهم أن قوله ﷺ : ومثل أجور من اتبعه ، لا يستلزم المساواة فى قيمة الأجر بل المثلية تتحقق بمجرد حصول الأجر لكل منهما وإن اختلفت قيمة الأجر على العمل عنها عن التسبب فى العمل ، والأمر بالعكس فى العمل السيئ .

ومن هنا يمكننا أن نفهم قيمة القدوة وأهمية الوظائف العليا أو مراكز التوجيه والتأثير وما يتحمل أصحابها من مسئوليات تجلب لهم الخير إن أصلحوا وتوقعهم فى الشر المستمر إذا أساءوا أو انحرفوا .

والأمثلة كثيرة ، ففرق بين من يدعو إلى الله على بصيرة ومن يدعو إلى طريق الشيطان والهوى على أساس من العمى والضلال ، وفرق بين من تربى أبناءها على الدين ومن تربيهم على الاستهتار بتعاليمه ومبادئه فى الزى والخلق والسلوك : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

عن سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه قال :

« قلت يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » ما معنى هذا الحديث ؟ .

الإسلام يقوم على دعامتين أساسيتين : الإيمان والعمل الصالح ، فعبر الرسول ﷺ فى هذا الحديث عن الإيمان بقوله : قل آمنت بالله ، فإذا كان المرء مؤمنا فإن المراد بقوله ﷺ : قل آمنت بالله ، جدد شعورك بها وردد كلمة التوحيد بلسانك ، وعايشها بكيانك .

ثم عبر عن العمل الصالح بقوله ثُم استقم ، أى الزم الطاعات واجتنب المخالفات ، ولازم الأعمال الصالحات ، قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نُزُلا من غفور رحيم) . والاستقامة عرفها بعضهم بأنها المتابعة للسنن المحمدية ، ومع التخلق بالأخلاق المرْضية وهى كما قال القشيرى . درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها .

وهى تستلزم مراقبة الأعمال ومتابعة الشرع وعدم الخروج على حدوده بحال .

ومن هنا كان دعاء المؤمنين فى كل صلاة عدة مرات : (اهدنا الصراط المستقيم) فعلى المسلم أن يتبين طريقه على أساس من الدين ، وأن يتجنب الانحراف ، فالخير فى الاتباع ، والشر فى كل ابتداع .

فى إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

ولقد كان رسول الله ﷺ ، أحسن الناس خلقاً ، لقد ربط حسن الخلق بالإيمان ، فقال فى حديث صحيح رواه الترمذى .

« أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً »

وفى حديث آخر رواه أبو داود ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » والخلق الإسلامى الأول الذى من أجله كانت الرسالة الإسلامية نفسها إنما هو خلق الرحمة ، ولقد روت الأحاديث أن أعرابيًّا دخل على رسول الله ﷺ ، فوجده يقبِّل أحد حَفَدته فاستغرب الأعرابى وقال : « أتقبِّلون أبناءكم ؟

إنّ لى عشرة من الأبناء ما قبلت أحداً منهم قط ، فقال رسول الله ﷺ : « أو أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟ » .

وفى موقف آخر مثل هذا قال رسول الله ، لأعرابى آخر : « ابتعد عنى لا تحرقنى بنارك » ويقول رسول الله ﷺ : « لا تُنزع الرَّحمةُ إلا من قلب شق » .

بل إن رسول الله ﷺ ، لم يقبل تفسير الرحمة على أنها خاصة بالأهل والعشيرة ، مقتصرة عليهم ، فقد قال فى وجه من فسر الرحمة بذلك : « أنا أعنى الرحمة العامة » .

فمن أساء لأبنائه ، فقد نزعت الرحمة من قلبه ، ودخل بذلك فى عداد الأشقياء وقطع رحمه ، ودخل بذلك فى عداد هؤلاء الذين قال الله فيهم :

(أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم) .

وذلك أن هذه الآية ، نزلت فى الذين يفسدون فى الأرض ويقطعون أرحامهم . ولقد كان رسول الله ﷺ ، ذا رحمة بالحيوانات ، وهو القائل : الشاة إن رحمتها رحمك الله .

فعلى كل إنسان بصورة عامة أن يتحلى بصفة الرحمة حتى يدخل فى نطاق قوله ﷺ : الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا مَن فى الأرض يرحمكم من فى السّماء .

فى حق التوكل على الله

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيما رواه الإمام الترمذى وحسّنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

فإن الطير تذهب أول النهار ، كما يقول الإمام النورى خماصاً ، أى ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطاناً أى ممتلئة البطون ، والواقع أن الحديث الشريف يوجه الأذهان إلى أن الطير تصبح فتذهب للبحث عن رزقها ، تصبح جائعة فتعمل وتجتهد فى طلب الرزق وبعد رحلة عمل مستمر ساعات تعود إلى عشها ممتلئة البطن شبعاً وريّا .

ورسول الله ﷺ لم يقل : إن الله يرزقها وهى ساكنة فى عشها ، وقد كان رسول الله ﷺ إمام المتوكلين ، وكان إمام المجاهدين المكافحين الآخذين بالأسباب ، وسيدنا « أبو بكر » رضى الله عنه حينما بويع بالخلافة ، أصبح ذاهباً إلى السوق ، يتجر كعادته ، فتكاثر عليه المسلمون قائلين كيف تفعل ذلك ، وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ فقال لهم : « لا تشغلونى عن عيالى ، فإنى إن

أضعتهم كنت لما سواهم أضيع » حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين.

لقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم ، يعملون ، ويكتسبون ، وكانوا مع ذلك من كبار المتوكلين ، ومما ينبغى التنبيه له أن أنبياء الله ورسله لم يبلغوا الدعوة وهم فى مساكنهم آمنين مطمئنين ، وإنما جاهدوا فى سبيلها جهاداً مستميتاً وكانوا فى جهادهم مثلا كريمة للمتوكلين يقول الله تعالى على لسان سيدنا هود عليه السلام :

(إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم) .

أخذ « هود » عليه السلام يعمل على نشر الحق الموحَى إليه ، الحق الذى دعا إليه كل نبى ورسول ، والذى يتلخص فيما قال هود عليه السلام .

فى شرح حديث زيارة المريض وتشييع الجنازة

عن أبى سعيد رضى الله عنه – فيما رواه الإمام أحمد : أن النبى ﷺ قال : « عُودوا المريض وامشوا مع الجنازة ، تذكركم الآخرة » . وقول رسول الله ﷺ : « مع الجنازة » لا يوجب تقدماً ولا تأخراً وإنما فى معنى الإباحة فى المشى فى المقدمة أو خلف الجنازة .

ومن أجل ذلك يقول أنس بن مالك رضى الله عنه .

« الراكب يسير خلف الجنازة ، والماشى يمشى خلفها وأمامها ، ومن يمينها وعن يسارها ، قريباً منها .

وكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يمشيان أمام الجنازة ، وكان على رضى الله عنه يمشى خلفها ، ويقول رسول الله ﷺ : الراكب يمشى خلفها .

والواضح من كل ذلك أن الماشى بالخيار فى سيره مع الجنازة أما الراكب فإنه لا يسير إلا خلفها .

وسواء أكان الماشى مع الجنازة أمامها أم خلفها فإن من السنّة ألا يرفع صوته بقراءة أو بذكر وعليه أن يتدبر الموت ويعتبر به ، فإن أراد ذكراً فليذكر فى نفسه .

ومن السنّة ألا يقعد مشيع الجنازة حتى توضع ، فقد روى أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : إذا رأيتم الجنازة فقوموا ، فمن تبعها فلا يقعد حتى توضع ، ومن السنة ألا يتبع الجنازة نساء ، فقد روى ابن ماجه وروى الحاكم عن على رضى الله عنه قال : خرج النبى ﷺ ، فإذا

نسوة جلوس فقال : ما يجلسكن ؟ قلن : ننتظر الجنازة قال : هل تغسلن ؟ قلن لا : قال هل تحملن ؟ قلن : لا : قال : هل تدلين فيمن يدلى ؟ قلن : لا قال : فارجعن مأزورات غير مأجورات .

فى شرح حديث السبعة الذين يظلهم الله فى ظله

السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله ورد ذكرهم فى الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى ومسلم بسندهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظلّ إلا ظله» :

إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

وأما بدؤه ﷺ بالإمام العادل : فلأن العدل من جوهر شريعة الله سبحانه وتعالى : إذ به يرتفع الجور والظلم من الأرض ، وبه ينتشر الأمن والطمأنينة بين الناس ، يأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، فلا قتل ولا اغتيال للأنفس ، ولا سلب ولا اختلاس ولا اغتصاب للأموال ، ولا تعدّى ولا انتهاك للأعراض والحرمات .

ويطمئنون على أرزاقهم – فى اليوم والغد والمستقبل – جادين فى السعى لتحصيلها مما أحله الله لهم فى أرضه الواسعة ، وكفله لعباده من النعيم فى الدنيا إن هم أقاموا ما أمرهم الله وانتهوا عمّا نهاهم عنه سبحانه ، وكل ذلك لا يتحقق ولا يتم إلا بإقامة العدل فى الأرض ، ولا يتأتى هذا إلا أن يقوم به رجل موفق يرجو الآخرة ويرجو رحمة ربه ويعمل على الخير على تحقيق الخلافة فى أرض الله بإقامة شرائعه .

ذلكم هو الإمام العادل الذى ائتمر بأمر ربه : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان . .) والقائل : (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) لذلك كانت له البشرى فى الحديث بأن يكون فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، وبأن يكون مقدماً فى الذكر .

وقد توالت عليه البشريات فى الدنيا والآخرة (إن الله يحب المقسطين) . والرسول ﷺ يقول : «خياركم أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم . . وشراركم أئمتكم الذين تبغضونهم

ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » . كما يقول ﷺ أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى مسلم وعفيف متعفف ذو مال .

وهذا وغيره كثير يوجب على أئمة المسلمين أن يحققوا العدل فى الأرض ويحكموا بين الناس بما أنزل الله .

وذكر هؤلاء السبعة : لا يعنى أن الأمر مقصور عليهم ، إذ العمل بأمر الله فرائض ونوافل وقربات . . والانتهاء عما نهى عنه مع الإخلاص وصدق النية فى كل عمل يجعل من الإنسان وليًّا يحظى بالقرب والحب الإلهى : ومن حظى بالقرب والحب لم يقتصر الأمر معه على أن يكون فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله وحسب ، بل له فى الدنيا البشرى وله فى الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وانظر إلى قوله تعالى : فى وضوح واضح عن أوليائه الذين ائتمروا بأمره وانتهوا عما نهاهم عنه (ألا إنّ أولياءالله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم .) وقوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما توعدون . نُزلا من غفور رحيم) .

فى وعظ الرجال والنساء يوم العيد

عن جابر بن عبد الله قال :

قام النبى ﷺ يوم الفطر ، فصلى ، فبدأ بالصلاة ، ثم خطب فلما فرغ نزل ، فأتى النساء ، فذكّرهن ، وهو يتوكأ على يد بلال ، وبلال باسط ثوبه ، يلقى فيه النساء الصدقات . . .

قال ابن جريج : قلت لعطاء : زكاة يوم الفطر ؟ قال : لا : ولكن صدقة تتصدقن حينئذ تلقى قيحها[١٤٩] ويلقين . قلت : أترى حقًّا على الإمام ذلك ، ويذكرهن قال : إنه لحق عليهم ، وما لهم لا يفعلونه .

وفى الحديث من الفوائد :

استحباب وعظ النساء وتعليمهن أحكام الإسلام ، وتذكيرهن بما يجب عليهن ويستحب

(١٤٩) القيح : الخاتم العظيم يلبس فى الرجل أو الخاتم العظيم بلا فص .

حثهن على الصدقة ، وتخصيصهن بذلك فى مجلس منفرد – ومحل ذلك كله إذا أمن الفتنة والمفسدة .

وفيه خروج النساء إلى المصلى .

عن أم عطية قالت : قال رسول الله ﷺ « ليخرج العواتق وذوات الخدور ، والحيض ، وتعتزل الحيض المصلى ، وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين » . .

قال ابن حجر : وفيه استحباب خروج النساء إلى شهود العيدين ، سواء كن شواب أم لا . . ذوات هيآت أم لا .

وعن أم عطية قالت : أمرنا أن نخرج العواتق وذوات الخدور .

وعنها قالت : أمرنا أن نخرج ، فنخرج الحيض والعواتق وذوات الخدور .

فى السيدة سارة زوجة الخليل إبراهيم عليه السلام

السيدة سارة زوجة الخليل إبراهيم كانت مصاحبة له حين قدم إلى مصر ، وكان ملكها وقت ذاك من الطغاة الذين يحلو لهم أن يستحوذوا على ما يعجبهم من زوجات الآخرين فأوصاها سيدنا إبراهيم أن تخبر هذا الطاغية حين يسألها عن صلتها بإبراهيم بأنها أخته ويقصد بذلك أنها أخت فى الدين ، فليست سارة أختاً لإبراهيم من النسب بل هى زوجته وأخته فى الإسلام .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ : قال : « لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ، اثنتين فى ذات الله قوله : (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبّار ومعه سارة ، وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختى فى الإسلام فإنى لا أعلم فى الأرض مسلماً غيرك وغيرى – فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال ادعى الله أن يطلق يدى فلك الله لا أضرك ففعلت فأطلقت يده ودعا الذى جاء بها فقال إنك إنما آتيتنى بشيطان ولم تأتى بإنسان فأخرجها من الأرض وأعطاها هاجر . . إلخ »

الحديث الذى أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء وأخرجه مسلم فى الفضائل وورد مثل ذلك

فى حديث الشفاعة فى فصل القضاء يوم القيامة وفيه أنهم جميعا يأتون إبراهيم عليه السلام يطلبون منه الشفاعة ، يقول لست لها إنى كذبت ثلاث كذبات . . (قوله إنى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله لامرأته أخبريه أنى أخوك) .

فالصحيح أن السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم لم تكن أخته من النسب بل هى أخته فى الإسلام ، والكذب المنسوب لسيدنا إبراهيم لا يقدح فى النبوة لأنه ليس كذباً على سبيل الحقيقة بل هو من قبيل المعاريض وإبراهيم عليه السلام قد صرح بذلك ، إذ قال إنك أختى فى الإسلام وحينئذ فليس فيه نسبة الكذب حقيقة إليه وامتناعه فى الشفاعة عن الشفاعة لأنه يرى أنه وإن لم يرتكب خطأ فقد ارتكب ما هو فى صورة الخطأ .

فى الحديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

فقد روى الخطيب جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

إن الظروف التى قيل فيها هذا الحديث الشريف تلقى بالضوء على المعنى الذى أراده الرسول ﷺ : وذلك أنه بينما كان الرسول ﷺ راجعاً من إحدى الغزوات قال : قدمتم من الجهاد الأصغر : أى من الجهاد الحربى وهو جهاد فى سبيل الله قد يشوبه عند بعض الناس ما يشوب النفس التى لم تخلص بعد إخلاصاً كاملا لله سبحانه وتعالى ، ومثل ذلك ما رواه أبو داود بإسناد جيد عن أبى أمامة قال :

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا شىء له » فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ « لا شىء له » ثم قال ﷺ « إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه » .

ومعنى الذكر فى الحديث الشريف أن هذا الرجل يلتمس مع الأجر والثواب أن يتحدث الناس على شجاعته وأن يمدحوه ، وأن يكون من أصحاب الشهرة والثناء فيما بينهم ، ومثل هذا لم تخلص نيته لله وحده .

أما الجهاد الأكبر فإنه جهاد النفس حتى تتزكى وتطهر ؛ فإذا ما تزكت النفس وتطهرت ، فإن

صاحبها يهب نفسه خالصة فى سبيل الله فهو يجاهد الجهاد الحربى بروح لا تبالى على أى جنب كان فى الله مصرعها ، ويجاهد الجهاد الحربى بإيمان قد وضح فى عناصره أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، ويجاهد الجهاد الحربى وقد تشبع بالمبادئ الإسلامية فى الحرب وفى قوله تعالى مخاطباً المؤمنين مبيناً لهم ما يجب عليهم عند اللقاء والتحام الصفوف .

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) . سورة الأنفال الآيات ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ومن ذلك نتبين أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر لأنه الأساس لكل خير ، فهو الأساس للأمن فى المجتمع وهو الأساس للثبات والصبر والنصر على الأعداء فى الجهاد الحربى .

يقول الله سبحانه : (قد أفلح من زكاها) . . . . (سورة الشمس) .